صبا نعمة

حلم من تحت العباءة

E-KUTUB.com
Digitized by Google

حلم من تحت العباءة

(ثلاث قصص)

صبا نعمة

إصدارات إي-كتب
لندن، تموز-يوليو 2015

Digitized by Google

Dream from under chador
By: Saba Nemah
Copyright: The Author
Published by E- Kutub.com & Google Books
ISBN: **9781780581576**

* * * * *

الطبعة الأولى، لندن- يوليو 2015
المؤلف: **صبا نعمة**
الناشر: E-kutub Ltd، شركة بريطانية مسجلة في انجلترا برقم: 7513024
جميع الحقوق محفوظة للمؤلف.
لا تجوز إعادة طباعة أي جزء من هذا الكتاب ألكترونيا أو على ورق. كما لا يجوز الاقتباس من دون الإشارة الى المصدر.
أي محاولة للنسخ أو إعادة النشر تعرض صاحبها الى المسؤولية القانونية.
إذا عثرت على نسخة عبر أي وسيلة اخرى غير موقع الناشر (إي- كتب) أو غوغل بوكس، نرجو اشعارنا بوجود نسخة غير مشروعة بالكتابة الينا:
ekutub.info@gmail.com
يمكنك الكتابة الى المؤلف على العنوان التالي:
mauverose10@gmail.com
لوحة الغلاف للفنان العراقي عبد الرحمن السعدي

Digitized by Google

الإهداء

إلى كل قلب نبيل يرقد في حضن الوطن فيما ينساه الناس وتجهله كتب التاريخ..

إلى كل روح التي تسكن سمانا.. وتجاور نجومنا..

وترنو نحونا راغبةً منا التقدم نحو حضارة أكثر إنسانية..

والى كل أصحاب الرؤى.. والحالمين..

Digitized by Google

محتويات الكتاب

1- مارينا.. عروس البحر
2- حلم من تحت العباءة
3- نبعة وإخوانها السبعة
4- الهوامش

Digitized by Google

مارينا.. عروس البحر

(1)

ما من معاهدة تمنع مساعدة البشر أو التعامل معهم.. لكنها الحكمة فحسب.. والمعرفة المسبقة لطبائع البشر..

رغبة البشر بالتسلط والتحكم في العالم كما لو كان ملكاً خاصاً بهم.. تدفعهم لارتكاب الشرور دون أدنى شعور بالمسؤولية حول الأذى الذي يلحق بباقي الكائنات التي تشاركهم ملكية هذا العالم..

مارينا كانت تعلم بذلك.. ومع هذا اندفعت نحوه حين رأته يهوى مع حطام سفينته.. لم تكن وسامته الملكية هي التي غلبت حذرها وإنما..

كانت تراقبه من بعيد ورأته.. حين منح تلك المرأة وطفلها الصغير مكانه في قارب النجاة.. أنقذها وألقى بنفسه في البحر.. على أمل أن يصمد حتى تنتهي العاصفة.. أو تجرفه الأمواج إلى الشواطئ القريبة..، لكن العاصفة الشديدة.. منعته من التشبث بشئ..

كان يغرق.. ومارينا تراقبه.. رأت نبله ولم تستطع أن تمنع نفسها من مساعدته.. وإنقاذه من الموت..

"صدفة.. وكأن مع ذاك الوصل موعد..
وكأن الشتا من زود الوله ما يشتهي يبرد..
والمطر ويه الغدير صارت بيومها برد..

Digitized by Google

وأنا وسط العاصفة صارت الصدفة عاطفة..

واه يا خوفي وحنينك.. آه ما أجمل سنينك.. ضاعت كأنها طرفة.. "

العاصفة انتهت.. الشمس أشرقت.. والشاب النبيل مستلقٍ على الشاطئ..، وفتاة جميلة إلى جانبه.. تتسمع على نبضه.. تراقب أنفاسه.. تنظر حولها.. ولا ترى أحداً.. تنحني عليه.. شفتيها على شفتيه.. تبث في فمه أنفاسها.. وتحاول إعادته للحياة.. لكنه لم يستجب..

يا الهي.. لا يمكن أن يكون قد مات.. تمرر أصابعها فوق وجهه.. عنقه.. صدره.. ذراعه.. لو لمسته يدها.. لو حاولت ان تهز جسده بقوة.. هل سيستفيق..؟

تذكرت مارينا.. ان عليها ان تضغط على صدره بقوة.. لتتخلص من ماء البحر الذي ابتلعه.. استعدت للقيام بذلك.. لكنها سمعت صوت بشر يقتربون..

في اللحظة المربكة تلك.. رأته يستفيق.. فتح عينيه بصعوبة.. رآها إلى جانبه.. تأوه وغاب عن الوعي من جديد..

(2)

يعتقد البشر أن مملكة الحور هي خيالات يتناقلها البحارة المتلهفون لمتع اليابسة كما يتراءى سراب واحة لتائه عطش في الصحراء..

Digitized by Google

خرافة عن نساء حسناوات يظهرن لهم في الأعماق البعيدة من البحار.. لهن ذيل سمكة.. وأصوات رفيعة يغنين بها أعذب الأغنيات ويعزفن على قيثارات غربية..

لكن الحقيقة مختلفة عن ما كان متداولا.. فالحور مملكة من أفراد يسكنون اقاليم بعيدة.. مجتمع من ذكور وإناث يشغلون طبقات ووظائف ومهاما.. لكنهم مجتمع صغير منغلق يجتمع أفراده على حماية بيئة البحر والحرص على سلامة أبناء جنسهم وتجنب الاقتراب من البشر أو التدخل في شؤونهم..

لهذا بدا لكرستيان أن ما أخبرته به مارينا أمر خطير.. ونصحها بكتمانه.. فلا يضمن ما الذي سيحدث لو سمع أفراد آخرون من ملوك البحر - كما يحلو لهم ان يطلقوا على أنفسهم - شيئاً حول المغامرة التي خاضتها لتنقذ ذاك الشاب..

قالت له مارينا:

- (لهذا السبب.. أنا لم اختر سواك لأخبره بالأمر.. كريس.. لا تتصور أي طاقة تلك التي أمدني بها الله.. وأنا احمل ذاك الغريق من الأعماق محاول الوصول به الشاطئ.. لقد تبادر إلى ذهني أولئك المساكين ممن تركناهم يغرقون.. لا اعلم كيف سمحنا لأنفسنا القيام بذلك ولم جعلنا منها قاعدةً نحترمها.. وهي ليست سوى خوف من الآخر.. الآخر المختلف ..)

ظل كرستيان منصتاً لها.. وحين صمتت.. رفع نظره.. ووجدها تنتظر جواباً منه.. فأخبرها بتخمين سريع:

- (أعتقد أن ثمة حوادث وقعت لأجدادنا.. وأذىً أصابهم لأنهم حاولوا التواصل مع البشر..)

قاطعته مارينا بانفعال:

Digitized by Google

- (لا اعتقد ان ذلك صحيحا.. لا أعتقد ان ثمة من عرف البشر من أجدادنا.. أننا نجهل البشر.. نخشى التعامل معهم لأننا نجهلهم ولأنهم مختلفون عنا.. لهم سيقان ويسكنون اليابسة.. فيما نملك نحن ذيلاً ونسكن البحار.. أتعتقد ان ذلك سبباً كافياً يمنعنا من ان نتواصل.. أتتصور كم سيكون رائعاً لو أننا نعقد معهم اتفاقيات ومعاهدات لتنظيم العلاقات بيننا..)

- أظنك تبتعدين في أحلامك كثيراً..

- حسناً.. اتفق معك.. ربما تلك أحلاماً بعيدة.. ولكن ماذا عن مساعدة الغرقى

- لا أعلم.. أعتقد أنك على حق في هذا الأمر..

*****

حسبت مارينا أن مكانتها كابنة لأحد الحكماء.. وما عرف عنها من حسن الصفات والأخلاق سيمنحاها الحق لتطرح أفكارها الغريبة عن عالمها بحرية تامة.. لكنها فوجئت ان التغيير هو أمر غير مرحب به.. مهما كان الدافع ومهما بلغت الأهمية..

أول المعترضين كان والدها.. ورفاقه من المستشارين.. لم يعارضها أمام الملأ فحسب بل وتراجع عن ترشيحها لخلافته في منصبه كمستشار معللاً ان جموحها لا يناسب من هم في منصب الاستشارة.. حتى لو كانت لا تزال في سن يافع فالدماثة والحكمة تظهر في سلوك الفرد منذ الصغر كما الذكاء والفطنة..

غضبت مارينا لكلام والدها.. وبدل استرضائه وتغيير فكرته عنها.. اندفعت بحماسة لتحقق ما كانت تحلم به..

Digitized by Google

أن تمتلك ساقين.. وتكون كالبشر.. هذا ما كانت ترغب به بعد رؤيتها لوليام - الشاب الجميل الذي أنقذته - .. يتردد الى الشاطئ.. يخبر البحر بخواطره.. يهمس للشواطئ بآماله.. يرسمها على الرمال.. يشيد مخططاته.. ويتركها خلفه.. لمارينا التي تترصده..

عارض كرستيان رغبتها.. لكنه مع ذلك رافقها إلى وكر زيفين.. حيث تعيش الساحرة.. واستمع للعرض الذي قدمته لها:

- (صوتك مقابل الساقين)..

هتف كريس:

- (ولكن صوتها ليس كأي صوت.. انه من أجمل الأصوات.. وهو مما يميزها.. فكيف لك ان تسلبيها إياه..!)

أجابت الساحرة:

- (مقابل صوتها الجميل.. سأمنحها ساقين جميلين..، ولكنك لم تعترض على عرضي لها حرصاً على صوتها الجميل.. إنما لأنك لا ترغب ان تصبح مارينا من البشر..)

لم تتنبه مارينا لكل تفاصيل المحادثة التي دارت بين كرستيان والساحرة.. فقد استوقفها العرض وحاولت ان تزن الأمور جيداً.. ان تتحول إلى آدمية ذات جاذبية وجمال أليس الأمر كافياً لتسحر قلب ويليام.. بل ولعله حين يراها سيتذكرها.. فما نفع الحاجة لصوتها إذن..

على عجالة اتخذت مارينا قرارها.. يدفعها شغفها بويليام.. وغضبها من والدها..، أخذت الجرعة السحرية.. ذات اللون النبيذي فأغمي عليها على الشاطئ.. ولما استفاقت وجدت شيخاً يلفها بقطعة قماش ثم يحاول ان يحملها الى بيته القريب..

Digitized by Google

رافقت مارينا الشيخ بقدمين خائرتين.. وعينان مندهشتان.. فيما كانت تتوجه معه نحو كوخه القريب.. ردت على كل أسئلته بإيماءات مبهمة.. وعيناها تبحث عن ويليام في كل مكان..

*****

أمضت مارينا ثلاثة أيام في ضيافة الشيخ - وهو يعمل في اصلاح القوارب- وزوجته.. استغلتها في محاولة تعلم الوقوف والمشي.. وإيجاد لغة بالإشارات لتتفاهم بها مع المحيطين..

في مساء اليوم الثالث وفي ما كانت مارينا تراقب البحر وتنتظر مشاهدة الغروب.. سمعت اثر خطى هادئة..، أدركت انه هو.. صوته يقترب.. أنفاسه تمتزج مع النسيم الذي هبّ فحرك خصلات شعرها الأشقر التفت نحوه..

وجهها الطفولي.. تميزه عينان بلون البحر وعمقه الغامض.. بشرتها العاجية وملامحها الهادئة تشع بابتسامة رقيقة..، وجّه ويليام الى الشيخ العجوز خطابه قائلاً:

- لم تخبرني.. انك اصطدت ملاكاً.. أيها العجوز الطيب.. من هذا الضيف الذي يأنف مخاطبتي له؟

سارع الصياد الى حلّ سوء الفهم:

- إنها فتاة غريبة يا سيدي.. وجدتها على الشاطئ في حالة سيئة وقد أغمي عليها.. أخذتها الى زوجتي الطيبة التي ألبستها ملابساً كان يلبسها ولدي في صباه.. حين استعادت الفتاة وعيها واجهت صعوبة في الوقوف.. واحتاجت لأيام كي تتمكن من السير.. اما صوتها فأعتقد انها فقدته بسبب الفزع فمن الواضح

Digitized by Google

انها لم تكن خرساء سابقاً والا لأتقنت لغة الإشارة.. المسكينة تحاول ان تخبرنا بما عانته.. لكننا لا نفهم شيئاً مما تتحدث به.

ويليام- الم تعرف من اين جاءت.. والى اين تود الذهاب..؟

الصياد- لا يا سيدي.. لم نفهم مما حاولت ان تخبرنا به شيئاً.. وقد توقفنا عن سؤالها بسبب حزنها ودموعها..؟ وقلنا في أنفسنا إنها هبة أرسلها لنا الرب لتؤنس وحشتنا بعد ان تركنا ابننا الوحيد وأصبح بحاراً.

*****

تحققت أمنيتها.. هذا ما فكرت به مارينا وهي تستمتع بوقتها برفقة السير ويليام.. ولم يشغلها انه لم يطلب يدها بعد أو لم يطلب إليها بوضوح الانتقال للعيش معه في القصر.. فقد بدا وكأنه انتقل ليعيش معها في بيت الشيخ العجوز على الشاطئ..

كل يوم تقريباً كان يأتي ليشاركها الركوب على الخيل.. أو يحدثها عما يجول في خاطره.. من تطلعات بعيدة.. مردداً:

- أنت السبب في إقبالي هذا على الحياة.. ودخولك الى حياتي منحني الرغبة في إحداث تغيير كبير في محيطي الكهل.. ففي الماضي كنت أعاني من الوحدة الشديدة.. التي دفعتني الى السفر.. وفي سفرتي الأخيرة واجهتنا عاصفة شديدة.. حطمت أشرعة السفينة التي كنا نركبها.. فلجأنا الى قوارب النجاة..

هناك رأيت أماً مسكينة سقط ابنها في البحر فيما كانت تحاول إسكات بكائه.. وحين حاولت ان تنقذه سقطت معه وأبعدهما الموج عن قارب الذي كانا فيه.. لحظتها لم أفكر طويلاً في أهمية حياة

Digitized by Google

بائس كئيب مثلي بالمقارنة مع حياة تلك الأم وطفلها.. ولهذا حاولت إنقاذهما وتركت لهما مكاني في القارب.

سيطر الانفعال على وجه مارينا.. وتساقطت دموعها كالأمطار الغزيرة.. حاول ويليام كفكفتها.. فأمسكت مارينا يده وراحت تضغط على كفه بقوة.. لم يفهم ويليام مقصدها.. فراح يكمل حديثه.. :

- لا تبك يا ملاكي.. لم أرو لك الحادثة لتبكي.. بل لأخبرك بما حدث لي بعد ان تقاذفت الأمواج العارمة جسدي وانتهت به إلى هذا الشاطئ.. حيث وجدني العجوز الطيب وابنه.. كنت غائباً عن الوعي.. احلم أو أهذي لا ادري أيهما اصحّ لوصف حالتي.. ولكن ما انا متيقن منه أنني رأيت وجهاً له ذات الملامح التي تمتلكينها يا ملاكي.. أدرك ذلك لأنني بقيت احلم بوجهك ليالٍ طويلة.. دون ان اعلم أن الأمواج التي حسبتها قاتلتي هي التي أحيتني مرتين.. مرةً حين حذفت بي إلى هنا ومرة أخرى حين حملت اليّ ملاكي.

عجزت مارينا عن التعبير المناسب للموقف الذي كانت في خضمه.. فقد أحست بعاصفة من المشاعر تجتاحها.. مزيجاً من الفرحة بمشاعر ويليام نحوها.. والحزن بسبب جهله لدورها في إنقاذه.

وأدركت مارينا في تلك اللحظة ان مقايضة صوتها بساقين بشرية لم تكن مقايضة عادلة.. فما نفع هاتين الساقين الرشيقتين المختفيتين في سروال ضيق رثّ.. حين تكون في مثل هذا الموقف الذي تحتاج لوسيلة توضح فيها موقفها.. وتعبر بها عن مشاعرها.. وأي وسيلة كانت لتكون أجدر من صوتها العذب الذي

Digitized by Google

فقدته بخدعة من الساحرة زيفين.. أخذت منها صوتها ومنحتها هاتين الساقين.. اللتين تعدوان بهما بعيداً عن من أحبته ولم يفهمها.

(3)

اعتقدت مارينا ان اهتياج مشاعرها وبكاءها الغير مبرر كان السبب وراء غياب ويليام لعدة ايام عنها.

لكن الشيخ العجوز اخبرها انه سمع من الناس في المدينة.. ان القرى الحدودية تتعرض لهجوم متكرر وان السير ويليام هو سياسي شاب أكثر من السفر والتطلع ولهذا فقد يتمكن من إنهاء الأزمة بحنكته ومعرفته.. واقسم لها الصياد أن أهمية المهمة التي اضطلع بها ويليام وعجلتها هي السبب في عدم توديعه لهم حين سافر.

عاد ويليام بعد مرور أسبوع على غيابه.. عاد راكباً عربة حصان فارهة.. عاد محملاً بالهدايا.. فستان جميل وحليةً من اللؤلؤ.. وكل ما يلزم مارينا لتستعد كي يأخذها معه بالعربة إلى قصره.. حيث يعد لها مفاجأة سارة.

*****

(بدت رائعة الجمال) هذا ما قالته الزوجة العجوز وهي تتحدث عن مارينا.. لكن زوجها الشيخ لم يجبها.. وظل صامتاً شارداً بنظره إلى الأفق البعيد.. حيث تلتقي السماء بالبحر.. ويتقاسمان قرص الشمس بوئام.. وانتظر حتى ابتلع البحر حصته من قرص

Digitized by Google

الشمس وبدأ بالزحف نحو حصة السماء.. نادى الشيخ على زوجته واخبرها بما اخبره به ويليام.. بينما كانت مارينا تستعد للذهاب معه..

*****

بلهفة طفل ينتظر أمه استقبلت مارينا ويليام.. تحدثه عيناها عن ليال المشتاقين.. تخبره شفتاها بوعود المحبين.. وحين منحها تلك الهدايا.. حاولت أن تشكره.. وحين طلب منها أن ترافقه بعربته للذهاب إلى قصره.. أحست أنها اقتربت من تحقيق حلمها..

لذلك بذلت جهدها لتظهر بأبهى مظهر وهي تتوجه برفقة من تحب لتحقيق ما كانت تحلم به.. ونجحت حقاً في أن تكون أميرةً.. فائقة الجمال.. كحلم يطوف بخفة وروعة.. يبهر كل من تقع عيناه عليها.. وهي تخطو بثقة بين جموع المدعوين.. يدها بيد ويليام.. يقدمها إلى الجميع قائلاً:

- (هاهي عروس البحر.. هاهي ملاكي الحارس الذي حدثتكم عنه)..

لقد نجحت حقاً.. والفرح زادها مرونةً.. بين ذراعي ويليام فيما كان يشاركها رقصة الفالس التي دربها عليها بنفسه .. تألقا مع بعضهما.. وبدا كأنهما محاطان بهالة من السحر..

حين انتهت الرقصة اخذ ويليام ضيفته إلى حديقة القصر.. ليخبرها بالمفاجأة التي أعدها لها.. واعداً إياها أنها ستفرح بشدة حال سماع الخبر.. بل الأخبار التي يحملها معه..

Digitized by Google

فالمهمة السياسية التي اضطلع بها نجحت.. وحصل بموجبها على تعهدات من مملكة الشمال لإقامة فرق حماية مشتركة لحماية المناطق الحدودية بينهما.. ودعماً لأواصر الجوار.. فقد تم اقتراح أمر المصاهرة بين المملكتين..

ولان ويليام كان شاباً عازباً لم يرتبط بعد وقد حمل على عاتقه الإصلاح بين المملكتين كان عليه أن يختار من بين حسناوات البلاط عروساً له.. وقد اختار ابنة احد المستشارين وهي فتاة ناضجة.. ذات جمال وثقافة ومعرفة و.. و..

ظل ويليام مسترسلاً بحديثه.. ومارينا جامدة في مكانها لا تطرف رمشاً.. ولا تحرك طرفاً.. وقد شحب لونها.. واختفت كل مظاهر الحيوية منها..

"وأنا اللي كنت فاكرة انو حيشتكي من بعدي.. فاجأني بقصة ثانية.. ضيعلي الحلم الوردي.. *وأنا اللي فاكرة إني وحدي اللي بقلبو.. آثاري وحدة ثانية.. اجت بثانية وشغلت قلبو.. أوهام قال جاني بعد يومين.. يبكيلي بدمع العين.. يشكي من حب جديد.. يحكي وأنا ناري تقيد.. و سمعتو وفكري شريد.. وسكت وقلبي شهيد..

ما عرفتش إيه اقولو.. هرب كلامي مني.. سبتو ومشيت لوحدي.. والخطوة غصب عني.. وكأني بدنيا ثانية.. مذهولة ومش بوعيّ.. لكن بعد اللي كان.. قلت ثاني منو للأيام..

قال جاني بعد يومين.. يبكيلي بدمع العين.. يشكي من حب جديد.. يحكي وأنا ناري تقيد.. و سمعتو وفكري شريد.. وسكت وقلبي شهيد.. شايفين الظلم يا ناس.. دا حلال دا ولا حرام آه من

Digitized by Google

جرح الإحساس دي آلامو اشد آلام.. أوصيك بالصبر يا قلبي.. كان غرام وطلع أوهام "

اعتقد ويليام أن نسيم الليل البارد هو ما اثر على صحتها فأخذها إلى الجناح الفخم الذي أعده لها لتنام فيه..

وكأن بإمكانها أن تنام.. بعد ان اخبرها انه سيتزوج بعد الغد.. أدركت ان مصيراً مظلماً يقترب منها بسرعة.. وأنها لم تعد تملك من العمر سوى ليلتين فحسب..

ليلتان فحسب.. لن تمضيها في التفكير بقرار ويليام أو مبرراته.. إنما هي تفكر في القرار الذي أوصلها اتخاذه الى هذا الحال..، لربما كان أبوها وباقي الحكماء على حق.. في ان إنقاذ البشر من الغرق هي محاولة لتغيير إرادة الله.. ولكن هذا جنون.. وما قامت به هو جنون أيضاً.. ومن كان على حقٍ فعلاً هو كريس.. حين اخبرها ان صوتها أثمن من أن تقايضه بساقين بشريين.. وأنها لا تعرف ويليام لتضع حياتها على المحك بالمقابل مع محبته لها واختيارها ..

(لقد أصبت يا صديقي.. لا يمكن ان نحب حقاً.. من لا نعرفهم فعلاً..)

(4)

لم تكن تعلم زوجة الصياد بحقيقة مارينا واثر السحر عليها والمصير الذي ينتظرها ان تزوج ويليام بامرأة غيرها..

لكنها كانت ترى بوضوح المحبة التي تدخرها مارينا لوليام وفرحتها حين طلب اليها ان ترافقه..، وحين اخبرها زوجها بأمر

Digitized by Google

خطوبة ويليام.. تكدرت وشغل بالها بمارينا وكيفية تلقيها للخبر.. لذا طلبت من زوجها ان يأخذها الى القصر في الصباح الباكر.. قائلةً:

- (إن أراد أن يرتبط بغيرها فهذا شأنه ولن يمنعه احد.. ولكن ما الذي جنته صغيرتي ليضطرها لحضور عرسه.. الا يعلم ان ذلك الأمر قد يحطم فؤادها المسكين..؟)

*****

لم تفارق مارينا الشاطئ.. ولم ترفع بصرها عن البحر منذ عادت مع الصياد وزوجته من القصر حتى إنها رفضت تناول الطعام أو الشراب.. جلست هناك مطولاً متمنية أن ترى أحداً من عالمها.. عالم الحوريات.. كانت مشتاقة لأبيها.. وأختيها.. وصديقاتها.. ورفيقها كرستيان.. كانت تنتظر بيأس لأنها تعلم بقوانين عالم الحور التي تمنع الاقتراب من الأماكن التي يقطنها البشر أو يترددون عليها..

ومع هذا رأت خيالاً بعيداً في الماء يقترب منها بحذر.. هرعت إليه مارينا مسرعة.. كان كريس.. وكان مختلفاً.. جسده أكثر نحولاً.. وشعره الغامق غطى نصف وجهه.. ناداها فأجابته دموعها.. لأنها تعجز عن إخباره بحالها أو سؤاله عن حاله..

"متخيل أنا راح أتحمل.. بعدك عني مهما طوّل.. وقلبك لما عني يرحل ينساني وآنساه.. متخيل أنسى أيامي.. حزني وفرحتي وآلامي.. شوقي وضحكتي وأحلامي.. وكل اللي عشناه.. متخيل

Digitized by Google

أني راح اقدر.. اصبر وأتحمل أكثر.. حتى لو جروحي تكبر لا يا حبيبي لا.. انا ناطر حبيبي.. ترجعلي يا حبيبي.. أنا ناطر..

مهما حاولت أداري.. لهفة روحي وناري.. مهما طال انتظاري انا ناطر.. حرام.. تظلم أحبابك بغيابك.. وبعدك والله حرام.. يا حبيبي حرام يصير الحب بلحظة كلام.. الله ما يرضى يا ظالم.. لكن لا.. انت أطيب.. وما يرضيك اني اتعب.. تبعد والا تقرب ابقى ناطر..

يا الله تعال لحناني.. لو تدري كم أعاني.. ما تخليني ثواني.. ما أظن هانت عليك.. تهدم حبنا بديك.. وقلبي ناطر حبيبه وأنا ناطر..

يا الله حبيبي كفايه.. طالت هاي الحكايه.. انا محتاجك معايه.. انا ناطر حبيبي.. ترجعلي يا حبيبي.. أنا ناطر.. "

*****

وصلت عروسه.. وبدأ الحفل.. أصرّت مارينا على ان تحضر.. لتهنئة (صديقها).. ومباركة زواجه.. شكر لها ويليام حضورها وعرفها على عروسه.. حدقت فيهما.. شاردة البال في حالها وسخرية الأقدار.. فالرجل الذي منذ ان أنقذته من الموت تغيرت حياتها.. هاهي تسعى الان لقتله واسترداد كل ما خسرته بسببه.. كرهت مارينا الفكرة.. ولكنها مضطرة لمحاولة إنقاذ نفسها كي تعود لأهلها وأحبتها..

وقفت في زاويةً خافتة الأضواء.. تتحسس الخنجر تحت ثيابها.. تستذكر ما اخبرها به كرستيان:

- (لم انسك أبداً.. ولم يمر بي يوماً دون ان أتي الى الشاطئ لأنظر لك من بعيد لأطمئن عليك وأتعرف على أخبارك.. وذلك

Digitized by Google

اليوم الذي أرتديتي فيه ذاك الفستان وبدوت أميرةً من عالم الخيال.. بقيت انظر لك مذهولاً بسحرك وجمالك.. سعيداً لأجلك لأنني حسبت انه كان سيتزوج بك.. حزيناً لأنني.. ..

وحين كنت أهم بالمغادرة تبادر إلى سمعي حديث الصياد العجوز الى زوجته.. وهكذا علمت إنني كنت سأخسرك حقاً ولكن هذه المرة إلى الأبد.. ولم أجد سبيلاً لإنقاذك سوى باللجوء إلى المشعوذة زيفين.. والتي أسعدها ان تسلبني عيني لتمنحني هذا الخنجر.. الذي ستغرسيه في قلب ويليام قبل بزوغ الفجر لتزيلي بدمائه اثر السحر من جسدك.. عندها سيعود لك صوتك وذيلك.. وأنا سأنتظرك هنا لأخذك معي..)

حين اقترب الحفل من نهايته.. ذهبت مارينا لتسلم على العريسين.. وأشارت لويليام بحاجتها لمرافقته الى مكان قريب.. فلم يمانع معتقداً أنها تخفي هديتها له في مكان ما.. وتود أن تسلمه إياها..

ركبا جوادهما وظلاّ يجريان باتجاه الشاطئ.. مارينا قلقة بشأن ما تود الإقدام عليه.. وويليام يحاول ان يفهم بما تفكر به رفيقته.. حتى ابتعدا عن القصر.. واقتربا من الشاطئ كثيراً.. عندها سأل ويليام مارينا.. عن حاجتها الى رفقته في هذه الليلة وفي هذا الوقت.. فعروسه وضيوفه سيفتقدون حضوره..

استجمعت مارينا شجاعتها وترجلت.. فترجل ويليام.. حدقت في عينيه بوجه تملأه الدموع.. وضعت يدها على صدره لتتأكد من المكان الذي عليها ان تصيبه بقوة.. تحسست خنجرها مجدداً.. أخرجته من تحت ثيابها.. وحاولت..

Digitized by Google

لم تغرس الخنجر في قلبه.. بل وضعت مشبك اللؤلؤ الذي تشبك به شعرها في كفه.. لم يفهم ويليام منها شيئاً.. لكنه عانقها مستعجلاً.. وأربكها عناقه فغرست الخنجر دون قصدٍ في ذراعه.

*****

الدماء التي نزفت من ذراع ويليام بعد ان جرحته مارينا بخنجر الساحرة.. كانت كفيلة بإزالة سحر زيفين عنها.. وإنهاء تلك التجربة القاسية التي عانت منها.. مخيرةً بين ان تقتل روحاً سعت لإنقاذها في الماضي.. وبين ان تودع الحياة وتتحول الى زبد بحر.. ولأنها اختارت أن التضحية بنفسها تدخلت العناية الالهية لتمنحها فرصةً جديدة..

عادت مارينا الى البحر برفقة كريس.

وبنى لها ويليام تمثالا جميلا على الشاطئ حيث رآها أخر مرة.

Digitized by Google

حلم من تحت العباءة

الفصل الأول

(1)

حين أغمض الجفن دون عناء ترقب ودون انتظار لشيء.. ولا أمل بغد يكون أفضل من الأمس.. أو اليوم.. فيكون في أحسن أحواله صورة لهما.. أحسب أن هذا هو الموت..

حين تطفئ الريح شموع القلب فيحلّ الظلام.. وتتجمد كل الرغبات في الأعماق.. فنعجز حتى عن الحركة أو الرؤية.. ونفقد القدرة في أن نحلم أو نتألم.. احسب انه الموت.. حيث لا خوف.. ولا أمنيات.. فقط ظلامٌ وبرد.. . انه الموت.. وهم الذين قتلوني..

كنت بلا سلاحٍ.. بدوتُ كـ(فارسٍ) اعزل.. تعمد أن يشقّ طريقه مسالماً وسط جمعٍ ممن يختبئون خلف أسلحتهم.. وكأنني أتحداهم. كنت بينهم وهم كثُر.. أحدهم حاول أن يطعنني في ظهري بخنجره فقتله رجل آخر.. وقال:

- هو لي ولن يقتله غيري..

صوّب مسدسه نحوي، فأدركت مقصده.. عندئذ طلبت أليه أن يأخذني عند ضريح الحسين (ع).. "سلامٌ عليكَ فأنتَ السَّلام.. . وإنْ كنتَ مُخْتَضِباً بالدَّمِ

وأنتَ الدَّليلُ إلى الكبرياء.. . بِما دِيسَ مِن صَدرِكَ الأكرَمِ

Digitized by Google

وإنكَ مُعْتَصَمُ الخائفين.. . يا مَنْ مِن الذَّبحِ لم يُعصَمِ"

هناك وعلى مرأى من ضريحه وقفت.. أسندت ظهري إلى جدار من المرمر الأخضر.. لم اقترب أكثر.. خشيةً على قدسية المرقد الشريف.. لكنني لم أكن لأقاوم رغبتي في أن يشهد مقتلي.. وأن أملأ برؤيته ناظري فأتجلّد.. وأواجه موتي دون خشية.. قلت لقاتلي:

- أنا مستعدٌ للموت.. أطلق.

فأطلق رصاصته.. أحسست بحرارتها.. في جبيني.. بين عيني.. أحسست بها اخترقت رأسي.. تركتني انزف للحظات ثم فارقت الحياة.. مت كما كنت اشتهي.. لو أن بالإمكان للمرء أن يشتهي موته.. ورغم نشوة الفخر ظل الاحتضار محتفظا بالمرار الذي يمتاز به.. فالموت صعب حتى لو كنّا نسعى اليه.. ومهما كنا نتمناه.. فراق الحياة مؤلمٌ خاصة لمن لا زال يافعاً.. ويحسب أن بإمكانه أن يحقق الكثير.

إذن فقد كنت أكذب.. حين قلت إنني لا أخاف الموت.. زارني الموت في المنام ولا زلت مرتعبة منذ استيقظت وحتى الآن.. هل كانت رؤيا.. أم حلما بلا معنى.. هل كان كابوسا..؟ آه.. عليّ أن أوقف تفكيري به.. فهذه ليلة رأس السنة.. وبهجة الاحتفالات وصخب التوقعات يملأ كل مكان

١٠، ٩، ٨، ٧، ٦، ٥، ٤، ٣، ٢، ١

كل عام وانتم بخير.. أيها المحتفلين.. الصاخبين في كل مكان.. كل عام وانتم بخير يا أيها النائمين.. كل عام وأنت بخير أيتها الأمنيات..

Digitized by Google

مارست طقوسي التي اعتدتها في كل عام بارتشاف شربة ماء واكل قطعة حلوى.. احتضنت وحدتي ونمت..

أعلن العام الجديد منذ بدايته انه امتداد للأعوام السابقة.. لذا فليس من الغريب أن نرى المشاهد تتكرر في أماكن مختلفة من العالم.. تفجير كنيسة.. صراع أحزاب.. .تفجير جامع.. وزراء خارجية يجتمعون.. تفجير حسينية.. زعماء يخطبون.. وآخرين يصرحون.. وجماهير اعتادت أن تكون قطيعا "..، لا.. يبدو أن ثمة تغيرا" في المشهد..

الرؤيا.. لم تتضح بعد.. والإضاءة قليلة.. لكنني خمنت أنها هي.. رغم غرابة الفكرة.. ورغم

الظلام الذي يخفي الكثير.. لكنني أصبت التخمين.. وتقدمت نحوها لابتدأها بالسلام.. لولا أنها سبقتني بقولها (توقفي.. لا تقتربي أكثر.. عرّفي عن نفسكِ)..

- اسمي طيب.. طيب احمد..

- تشرفنا.. أنا François de Jarjayes Colonel..

- يسعدني أن التقي بك..

- حسناً يا طيب احمد.. أيمكنك إخباري أين نحن..؟

- عذراً كولونيل.. لا اعرف أين نحن.. بل ولا اعرف كيف يمكننا أن نلتقي أنا وأنت..؟!

- ما الذي تقصديه..؟!

- كنت احلم بلقائك.. ولكن.. لم أتصور أن الأمر وارد الحدوث.. فقد أعتقدتك شخصية مبتكرة من خيال كاتبة يابانية..

فوجئتُ بقبضتها تلتف حول عنقي.. وهي تهتف بي بقوة:

Digitized by Google

- كفي عن قول الترهات فوراً.. واخبريني الحقيقة.. من وراءك.. ولم تحتجزينني هنا؟

أجبتها بصعوبة.. بينما كنت أحاول التحرر من قبضتها: صدقيني أنا أخبرك الحقيقية..، أو على الأقل هذه هي الحقيقة التي اعرفها..

- إذن.. اخبريني بكل ما تعرفيه..؟ كل ما يمكن أن يساعدنا لنخرج من هنا..

- أنا من العراق.. هو بلد بعيد عن فرنسا..

- سمعت به في مكان ما..

- ولدت في القرن العشرين.. أي بيني وبينك أكثر من مائتا عام..

- ما هذه الأحجية..؟!

- ليست أحجية.. بل كابوسا..

- كابوس؟!.. الم تخبريني قبل قليل انك كنت تحلمين بلقائي؟

- نعم.. كنت.. حينما كنت صغيرة.. أردت أن التقي بك في حلم مثالي أكون فيه مقربة منك.. كأحد رفاقك.. أو إحدى أخواتك.. وليس بهذه الوضعية المبهمة..

- اسمعي.. أيتها الفتاة القادمة من المستقبل.. أياً يكن ما تحاولين القيام به.. أنت ترتكبين خطأً فادحاً باقتحامكِ منامي.. فانا بحاجة للراحة.. ولا أعدك بان تحظي بأية متعة..

- عذراً كولونيل.. إن كان وجودي يسبب لك الإزعاج، لكن أرجو أن تعلمي بأني لست المسؤولة عنه..

Digitized by Google

- قد لا تكونين مسؤولة عن تواجدك.. لكنك مسؤولة عن حديث ساذج لا رغبة لي في سماعه، طيب احمد.. أرجو أن تتحلي بالنضوج..، هيّ.. أنت.. لم تبكين..؟ هيّ.. طيب..

(نبرة الصوت تغيرت) طيب.. ابنتي.. استيقظي.. لم تبكين؟.. هل ثمة ما يزعجك..؟

- صباح الخير ماما..

- صباح النور.. يبدو انك كنت تعانين من كابوس ما..؟

- شيء من هذا القبيل.. .

- لا تهتمي.. يقولون أن البكاء في الحلم يجلب الفرح في الحقيقة.. فأي كان ما حلمت به.. إن شاء الله خير..

- إن شاء الله..

***

"يا أعدل الناس إلا في معاملتي.. . فيك الخصام وأنت الخصم والحكم

أعيذها نظرات منك صادقة".. . أن تحسب الشحم فيمن شحمه ورم

يا من يعز علينا أن نفارقهم.. . وجداننا كل شيء بعدكم عدم

إذا ترحلت عن قوم وقد قدروا.. . أن لا تفارقهم فالراحلون هم"

امرأتان في غاية الجمال.. أحداهما تقف بشموخ والأخرى تركع بإجلال.. الأولى تتحلى بمظهر الأميرات بفستانها الفاخر وشعرها المتموج..

Digitized by Google

أما الأخرى فترتدي زياً عسكرياً وتترك شعرها منسدلاً على كتفيها.. كلاهما كانتا تذرفان الدموع.. صوت أبي وهو يتحدث أعلى من صوت التلفاز.. لم أتمكن من سماع ما قالتاه..

ذاك المشهد ظل محفورا في ذاكرتي.. حدثت عنه ابنة عمتي التي تكبرني سناً فأخبرتني أن اسم "الأنمي" هو الليدي اوسكار لكنها أحجمت عن أخباري بتفاصيل قصته.. فزادت من تشوقي لمشاهدته.. لأني كنت من الشغوفين بالقصص وبرامج الأطفال..

في صيف عام 1995.. الطفلة في داخلي كبرت.. لتكون مراهقةً أكثر حيويةً وتمرداً.. لكنني لم أتغير كثيراً فلا زلت اعشق القصص.. وأؤمن بالخيال.. وقناتي التلفاز لم تكن ترضي طموحي ببرامجها..

ذات يوم قررتُ تغيير اتجاه الهوائي بزوايا مختلفة لعلي التقط بث قناة العراق الثقافية التي سمعت عنها.. وبعد بعض الجهد.. تمكنت حقا "من التقاط إشارة.. وأول ما رأيته عليها.. كانت هي..

لم يدم الحال طويلاً ولم أتمكن من متابعة سوى بضع حلقات.. تكاد تكون الصورة فيها شبحية.. إلا أنها أرضت فضولي و منحتني الإحساس بالظفر.. لأنني بت اعرفها الآن..

صيف 1999.. بث "الأنمي" على شاشة تلفزيون العراق ضمن الفترة الصباحية للعطلة الصيفية.. وقتها كنا في معسكرات (جيش القدس)..

التدريب كان يبدأ عند الساعة السابعة صباحاً وينتهي عند العاشرة.. عندها أعود مسرعة أحث خطاي لأصل في الوقت المناسب.. أحياناً كنا نضطر لقطع ساحة التدريب في دورات سير وهرولة كعقاب جماعي مما يثقل حركتي ويصعب عودتي غير

Digitized by Google

أن الأصعب هو أن أصل البيت فأجد التيار الكهربائي قد انقطع لتوه.. وبالتالي لا أتمكن ذلك اليوم من مشاهدتها..

في الأول من آب انتهى التدريب لكن انقطاع التيار الكهربائي كان مستمراً وفي ازدياد بمعدل يتراوح بين 20- 23 ساعة في اليوم.. ثمة أناس ماتوا بسبب لهيب آب والحر الشديد وآخرين ماتوا بسبب قوالب الثلج غير النظيف التي تضطر العوائل لشرائها.. الأغذية المخزونة تلفت.. وأسعار الطازج منها يزداد غلاؤه.. وثمة كسوف للشمس كان يقترب موعده..

لكنني لم أكن آبه سوى لرغبتي برؤيتها مرة أخرى ولو للحظة واحدة بعد أن فاتني الكثير من الحلقات وما عدت اعلم أين وصلت الأحداث.. سمعت من أحدى صديقاتي أنهم قطعوا بضع مقاطع من الكارتون بسبب المضامين السياسية التي يحملها.. خشيت أن يقطعوا بث "الأنمي" أو ينتهي دون تحقيق رغبتي في مشاهدته.

وفيما كان الناس في كل الكرة الارضية ينتظرون يوم الأربعاء 1999/8/11 ليشهدوا كسوف الشمس الكلي في الساعة الثانية بالقرب من مدينة الموصل.. أنا كنت انتظر ذاك اليوم لأشهد كسوفاً أخر.. كنت انتظر الساعة العاشرة والنصف صباحاً بفارغ الصبر.. ولكم خشيت أن يظل التيار الكهربائي غائباً فيحرمني منها أو ربما يأتي بعد فوات الأوان..

لا لم يكن قد فات الأوان بعد.. فعند العاشرة والربع عاد التيار الكهربائي بعد انقطاع طويل.. غير أن القلق لا زال يساورني..

وقفت بالقرب من شاشة التلفاز.. وبقيت واقفة.. انتظر.. حتى رأيت شمساً إنسية.. دكت الباستيل وألهبت المشاعر.. حين اهتز جسدها وهو يتلقى الرصاص ويسقط.. وداعاً.. وداعاً اوسكار..

Digitized by Google

امتزجت ابتسامتي بالدموع.. فقد لبت ندائي.. وانتظرت حضوري.. لتقول وداعاً.. فاستحقت بذلك الصرح الذي ابتنيته لها بين أحبتي.. واسطر المحبة التي كتبتها لها في مفكرتي مؤرخة بذاك التاريخ..

تلك ذكرى من الذكريات التي استيقظت برؤياها.. الذكريات التي تركتها مبعثرة في ماضٍ كدت أنساه.. فأنا كغيري من العراقيين.. ارتأينا أن نهجر ماضٍ أحرقته الحروب.. وعصفت به المصائب.. وخنقه حصار اقتصادي فرضه علينا العالم الخارجي.. وحصارا امنياً فرضه علينا النظام الداخلي ..

ومع أن ذاك الماضي لم يكن كله سيئاً.. لكن الأيادي التي تبحث بين الخرائب والحطام.. لا بد أن تصطبغ بالرماد.. فمن لم يكن له ذكرى قوية.. لامعة.. غالية.. كالحجر الكريم.. عليه أن يلتجأ للنسيان.. كي لا يختبر تجربة البحث عن ما هو مدفون من ذكريات..

عن أيام.. كانت الأحداث فيها توحدنا.. والجلوس أمام التلفاز يجمعنا.. وصوت بلبل الإذاعة يروق لنا.. وحلول العطلة يسعدنا.. والعودة إلى الدراسة تشغلنا..

كان فيها للعيد فرحة الأراجيح.. وطعم الكليجة.. كانت صباحاتنا تتوهج بالآمال والتطلعات.. ومساءاتنا تصخب بأحاديث الأجداد.. وحكايات الجدات.. حينما كنا أطفالاً.. وكان للطفولة معنى.. ثم بدأنا نكبر.. وشغفنا بالحياة يزداد.. آآآآه.. .

كنت كالحورية الصغيرة.. اغني للغد وأنا أرنو إليه.. الغد الذي حين جاء.. افقدني صوتي.. واخذ مني ما حلمت به.. وألقى بي

Digitized by Google

في أعماق البحر.. هناك.. لم أكن وحدي.. كان العراق كله في أعماق البحر..

بحرٌ رمانا إلى دوامة الانفتاح على عالم تزدحم فيه المصطلحات والتسميات والأجهزة الجديدة.. البحر كان هائجا.. بتيارات العنف المتلاحقة.. نخوض فيها.. وندور.. نخوض فيها.. ونحاول التخلص من الماضي.. كي لا يصعب حركتنا.. ننساه.. بشرّه وخيره.. بأحزانه وأفراحه.. بكل ما كرهناه فيه وما أحببناه..

ولكن ها أنا استذكره من جديد.. أعيد قراءته في مفكرتي القديمة.. حيث احتفظ بكلمات الشكر وتعليقات الغضب والإعجاب ورسائل الحزن والحب.. التي كنت اكتبها بشكل دائم.. لا لمن يسكنون واقعي فحسب.. بل لمن يزورون خيالي أيضاً.. ففي كل الأحوال.. هي كانت رسائل لن تصل أبداً.. ويبدو أنها لم تصل حقاً.. وألا لما أنكرتني الليدي اوسكار البارحة.. ولتذكرت تلك الشموع التي كنت أوقدها لها في ذكرى الثورة الفرنسية..

آاااه.. حسناً.. عليّ أن لا أعير الأمر كل هذه الأهمية.. ففي النهاية من هي (اوسكار)..؟ مجرد رسوم متحركة.. .لكن من أنا..؟ أنا.. هذه التي تختبئ خلف أوراقها.. وتتركها قابعة في الدرج.. في الظلام.. في الصمت..

هي وهم معرّف.. وأنا حقيقة نكرة.. لازلت نكرة ولا أثر لحياتي.. لا مأوى لي سوى غرفتي الباردة.. لا أصحاب لي سوى في الفيس بوك والذكريات.. لا أحداث لي سوى تلك التي لم تحدث تغييراً حقيقياً في مسار الحياة.. ولا من يهتم لأمري أو لمشاعري سوى من لا يعرفون حقيقة أمري أو مشاعري..

Digitized by Google

ومثلما كنت قد ابتدأت يومي بالبكاء.. أنهيته به.. ونشيجي صار يعلو.. خشيت أن يسمعوه.. فدفنت رأسي في الوسادة.. والدموع من عينيّ تنهمران بغزارة.. استولى علي التعب.. لم أكن أود أن أنام.. فقد بت أخشى أن اصطدم بأحلامي.. فقدت القدرة على ضبط حزني والتحكم ببكائي.. أجبرت نفسي أن توقف نشيجها.. لكن الصوت لم يتوقف.. لأنه لم يكن صوتي.. وذاك ليس بكائي..

كان صوتها.. كان بكائها.. التفت نحوها لكنني لم أشأ أن اقترب.. لم اعد طفلة ولا حاجة بي لمحاكاة الخيال.. آن الأوان لأنضج.. سأتجاهلها.. سأبقى هنا جالسة استمع لنحيبها بصمت.. لن اسألها عن السبب.. لن أحاول أن اقترب.. لكنني لا أملك أن امنع نفسي مشاركتها البكاء.. باغتتني كفها الرطبة وهي تمسح دموعي:

- عذراً.. لم أجد منديلاً مناسباً..

رفعت وجهي.. لأنظر إليها.. كانت كل ملامحها تغرق بالحزن.. بياض عينيها بدا شعلة حمراء تلتهم البحيرتين الزرقاوين.. حاولت أن اقول لها "مرسيه.. كلك ذوق.. وتفهم بالذوق.. قدرت اللي حبك وأتحمل لعيونك.. كنت عظيم في حبك أنا فعلاً ممنونك" غير أن صوتي لم يسعفني فأومأتُ لها برأسي..

جلست بقربي.. وراحت تنظر إلى البعيد.. ورغم أننا كنا محاطتين بالظلام ولا شيء غيره.. بدت وكأنها تنظر نحو شيء محدد..

- طيب.. اسمك طيب أليس كذلك..؟ ألا يمكنك أن تجيبيني..؟ حسناً.. أرجو أن تسمعي اعتذاري وتقبليه..، لا تتصوري أنني

Digitized by Google

فظةً أو سيئة الطباع .. لكنني مؤخراً.. بتّ اجرح كل من يقترب مني.. رغماً عني..

عانيت الكثير من الصعوبات في حياتي.. لكنني ولأول مرة اشعر بهذا القدر من الأسى.. والضياع بين رغباتي وأفكاري والخيارات المتاحة لي.. التناقض بين عالمي والواقع الذي علي مواجهته!

لا اعلم كيف يمكنني ان ابرر لك القسوة التي تعاملت معك بها في المرة السابقة.. رغم اني لازلت اجهل ما وراءك.. لكنني أجد في عينيك النرجسيتين نظرةً رأيتها سابقاً.. في عينين مُحبتين، لذا أنا أثق بك.. وبكل ما أخبرتني به.. وأتمنى أن اعرف منك عن حال النساء بعد المائتي عام..

استمعت أليها وأنا انظر باهتمام نحو ذات الاتجاه الذي تنظر إليه .. باحثةً عن ما تركز عليه نظرها بقوة وهي تتحدث.. بدا وكأنه شيء تراه.. لكنني لم أكن أراه..!

في الصباح حين استيقظتُ.. لم يكن على وجهي أو على الوسادة للدموع أثر.. كالأثر الذي تركته كلماتها في نفسي..، حيّيت أمي تحية الصباح متصورة أنني سأسمع صوتي مبحوحاً لكنه كان طبيعياً جداً..

عادت لتطرق أبواب فكري مختلف السير.. باحثةً عن عرائسٍ لأسئلتها.. فيخيب ظنها بصدود أجوبتي الخجلى.. فأحاديثها تورث خطوطاً حمراً.. ونقاطاً ثقالاً.. وحروفاً يبتلع بعضها بعضاً..، اعتدت ركنها على رف مهمل في زاويةٍ بعيدة من زوايا القلب.. تراكم عليها غبار الزمان.. دون أن أجد من افتحها معه..

Digitized by Google

فأبي.. يمكنني أن أناقشه في الدين والفقه والسياسة والأدب واللغة والعلوم على اختلاف مجالاتها يمكنني أن أناقشه في كل ما أراه عبر نشرة الأخبار وما اسمعه في الشارع.. يمكنني مجادلته.. تحديّه.. إطراءه.. يمكنني أن أتصور نفسي وأنا أحدثه عن كل شيء ألا ما اشعر به.. لأنني اعلم مسبقاً انه وبعبارةٍ دقيقة (غير مكترث) لمثل هذه الامور..

أمي.. مثل كل الأمهات.. قد تلبس ثوباً مختلفاً.. قد تسرح شعرها بطريقة مختلفة.. قد تطبخ طبخة مختلفة.. قد تشتري لي هدايا مختلفة.. قد تبدو مختلفةً جدا عن الامهات التقليديات لأنها كانت تجتهد في اختيار القصائد التي اقرأها في وقفة العلم وتساهم في تدريبي على إلقائها.. لكنها ليست مختلفة في ما تتمناه لابنتها (وظيفة ما تسد حاجتها للمال.. ورجلٌ تستره ويسترها).. اما فيما عدا ذلك فيبدو لها مجرد تفاهة ولا تستحق التحدث عنها..

فهي بالرغم من كل شيء كانت مثل معظم الأمهات.. لا تريد من أبنائها سوى أن يكونوا ذوي شأن لتتباهى بهم.. أو بعبارة ألطف.. هي تريد أن تفرح بأبنائها.

أما أخي.. فلا بد للأمر أن يعبر بوابة مصلحته الشخصية ليصبح أمراً يستحق الاهتمام .. لا أنكر انه سيستمع لي إذا حدثته.. وسيهز رأسه بإيماءات مختلفة ليؤكد على استماعه لي.. لكن سرعان ما يتركني ويمضي دون تعليق.. أو بهمهمةٍ ليست ذات معنى..

تلك معاناة يصعب البوح بها.. ومع هذا اكتشفت أنني لم أكن الوحيدة التي تشكو منها.. وأنها لا تقتصر على فئة الفتيات.. فالكثيرين كانوا يشعرون بما اشعر.. وكأنهم نباتات زُرعت في

Digitized by Google

أصيص ضيق فنمت على هاجس الترقب.. تخبئ براعمها بين جدران الخوف.. وتعيش اشتباكاً بين الأفعال وردود الأفعال.. فتبدو مجتمعاً مسوّرا بالأسى.. مزيناً بحواجز الصمت..

تلك الحواجز كانت كجدرانٍ من الجليد بدأت بالذوبان حين انتشر المنتديات ومواقع التواصل الاجتماعي.. التي كفلت لهذا الجيل أن ينعم بشيء من نور المعرفة ودفء الحوارات.. التي لا تتسم بالودية دوماً.. غير أنها توفر لمتعاطيها الفرصة ليقرأ ويفكر ويعبر ويتفاعل..

كما كان الحال معي حين حصلت على العضوية في منتدى سوري كان الوحيد الذي شاركت فيه رغم أنني سجلت في منتديات كثيرة قبله..

مؤسسوه هم مجموعة من الشباب السوريين المسيحيين ولهذا منحوا المنتدى اسماً ذا طابع مسيحي.. وزينوا المنتدى باللهجة الشامية.. مرتادي هذا المنتدى ينتمون لألوان مختلفة من مجتمعات مختلفة.. هناك تعرفت على الكثير من الأشخاص.. وأضفت الكثير من المعلومات والأفكار والذكريات لحياتي.. واكتسبت عدداً من الأصدقاء بت أتواصل معهم عبر الماسنجر والفيس بوك..

احد أولئك الأصدقاء كان زياد.. وهو تقدمي الهوى.. له نظرته الخاصة للحياة ومزاجاً مذواقاً في الموسيقى خصوصاً والفن عموماً.. غالباً ما كنت احتفظ بنسخة عن رسائله وتعليقاته التي يجود بها حين نلتقي في محاورة ما أو عندما أطلعه على بعض كتاباتي.. لا للإطراء الذي يعطرها به.. إنما لتلك الملاحظات المتناثرة بين السطور..

شاءت الأقدار يا سيدتي

Digitized by Google

أن تسقطي كالمجدلية..
تحت أقدام المماليك..
وأسنان الصعاليك..
ودقات الطبول الوثنية..
وتكوني فرسا رائعة..
فوق ارض يقتلون الحب فيها..
والخيول العربية..
زياد

أخي العزيز.. زياد..
يسعدني انك تمنحني وقتاً.. وتستمع لكلماتي وتحاورها باقتضاب وانتقائية وقسوة.. تعجبني قسوتك الأنيقة.. حاولت أن أتقمصها لكنها اكبر مني.. سأعلقها على صفحات ذاكرتي لعل احد أبطال قصصي سيكبر ذات يوم ويحتاج لارتدائها.. لذا امنحني تنازلاً خطياً عن حقوقك فيها..
طيب
- طيب.. كيف حالك..؟
- بخير.. أسأل عن أخبارك..
- أنا بخير، قلقت عليك حين سمعت عن سلسلة من الانفجارات في مناطق مختلفة من العراق وأنت بقيت غائبة لعدة أيام..
- شكراً.. شكراً لسؤالك.. أيها الأخ العزيز..
- لمَ لا تكفين عن مناداتي بالأخ العزيز..؟
- درءا للشبهات عن صداقتنا..

Digitized by Google

- وهل في الصداقة شبهات..، أم أني غير جدير بالثقة لتلك الدرجة التي تستلزم تذكيري بحدودي بين الحين والأخر..

- لا.. كل ما في الأمر أنني اعتز بك وأجلّك لتلك الدرجة التي ألزم نفسي معها بمناداتك بأخي..

- احم.. احم.. وهل من سبب معين لهذا القدر من الإجلال..

- لأنك كبير..

- مازلت صغيراً يا فتاة..

- بالسن نعم..، لكنك كبير بعينك التي تصور الوطن حقولاً وبساتين.. وبحزنك الذي تخبئه ساخراً من كل الأشياء.. بقلبك الذي صيرته جداراً لذكريات الغرباء.. باعتدادك بنفسك وأنت تلعب بالكلمات..

- أو ليست الحياة لعبة..؟

- بلى..، هي أرجوحة يحترف من حولي ركوبها واعجز عن مجاراتهم.. فأقف دونهم عاطلةً عن العمل..

- لكن الأعمال كالحروب.. والحرب خدعة..

- وأنا واضحةٌ.. لا أرضى الزيف والخداع..

- ألم اقل لك سابقاً.. (احذري وضوحكِ فقد يصير عيباً)..

- وضوحي فحسب..؟!.. كل حسناتي عيوب..

- لا تبالغي..

- ما يجتذب الناس ليتعرفوا عليّ هو ذاته ما يستفزهم ليكرهونني..

- ومن يهمكِ من الناس..؟

- من يحبوني (سمايلي خجلان)..

- يبدو أنهم كثر..؟

Digitized by Google

- ما رأيك..؟

- هههه (سمايلي مبتسم ابتسامة عريضة) لا اعتقد انك السبب..، ربما هم لا يجيدون قراءتك..

- بل يجهلون القراءة.. ولا يجيدون الحديث.. .. أنهم لا يحبون الاستماع إلى أي نوع من أنواع الموسيقى .. ولا يعرفون جبران خليل جبران.. ولا يميزون الفرق بين تصاميم كوكو شانيل وأيلي صعب..

- لأنها تبدو مجرد تفاصيل .. فلا بأس أن لا يعرفوها..

- لا بأس أن يجهلوها.. لا أن يتجاهلوها..، ذاك أساس المشكلة إنهم لا يعيرون اهتماماً لمحاورة النساء.. فما يريدونه هو اصطياد النساء..

- وهل النساء فرائس..؟!

- بل الإنسانية هي الفريسة.. لهذا الجهل الذي يجرنا إلى الدمار..

- لم لا تبعدي هم الإنسانية عن فكرك.. وتستريحي قليلاً..؟

- لان فكري جزء منها..

- لكنني تعبت..

- من هم الإنسانية..؟

- بل من مجاراتك.. وكأنك طفلةٌ تلعب في سرداب قديم..

- لكنني لا العب..

- وهذا ما يقلقني.. عليك أكثر..

- هل عرفت ألان لمَ أنت أخي العزيز.. باي..

- لا زال الوقت مبكراً..

- سأتركك لترتاح..

Digitized by Google

(2)

Marie François Augustin Reynier de) Jarjayes).. هو اسمها هذا ما قالته لي حين التقيتها هذه المرة.. في مكان أكثر إضاءة.. متكئتان كنا كلتانا على جذع شجرة.. بدت هادئةً جداً.. مبتسمة.. كانت حتى كلماتها مبتسمة.. استغربت أننا نناديها ب(Oscar).. قالت انه ليس اسماً فرنسياً حتى.. فأخبرتها أن الكاتبة ربما اختارت هذا الاسم لرمزية معناه (وما معناه..؟) سألتني.. (سيف وحورية.. أو سيف والهة شقراء جميلة).. . اتسعت ابتسامتها.. فقد راق لها المعنى.. لكنها أردفت القول..

"أنا ألجوري.. أنا ألجوري
آغآت كل الزهر.. .
أغيب عنكم سنة..
وآلفي عليكم شهر..
وأترس قماقمكم من دموع الدهر"

- ناديني (François).. هكذا اعتدتُ أن يناديني المقربون..

طرحت عليّ الكثير من الأسئلة عن لقاءاتنا وكيفية حدوثها.. وعن جدواها..، تلك الأسئلة ذاتها التي ترافقني وأنا انظر لها.. لكن.. الأمر مختلف بعض الشيء..، فأنا اعرف عنها الكثير.. أو على الأقل هذا ما كنت أتصوره فيما هي لا تعرف عني أي شيء..

- إذن ستحدثينني عن المستقبل.. وستخبرينني بما سيحدث معي أليس كذلك..؟

فوجئت بسؤالها.. استعرضت الأحداث في فكري.. ما الذي يمكنني أن اخبرها به.. لاحظت ردة فعلي .. فقالت:

Digitized by Google

- يبدو انك تخشين إخباري عن ما سيحدث.. لا تخافي سأتقبل الواقع.. هل سأموت.. اقصد في النهاية..؟

- وهل من حي لا يموت..؟

- إذن لم لا تخبريني..، كيف ستكون نهايتي.. .؟

- لست متأكدة من أنني اعرفها.. لأخبرك..

- لكنك تعرفين يا طيب.. (تنفست بعمق وأكملت) ولا تريدين إخباري.. فلماذا يا ترى؟

- لأنني عرفتك من خلال قصة أدبية وهي ليست مصدراً يمكنني أن اعتمده لادعي معرفة ما سيحدث لكِ.. أنا بحاجة لأتأكد من دقة ما سأخبرك به من مراجع تاريخية.. لذا اسمحي لي أن أجيبك حين تتوفر لدي الإجابة..

- أو حين تكونين مستعدة..، لك ذلك..

امتدت يدها لتصافحني.. أناملها طويلة رفيعة النهايات.. قبضتها الصلبة.. احتضنت كفي بدفء.. أول مرة أصافح كفاً أكثر نحولاً من كفي.. إنها يد الليدي اوسكار.. اقصد يد (الكولونيل فرانسوا دي جرجايز)

اسمها بدا أيقونة سحرية ما إن تلقفتها محركات البحث حتى وجدت نفسي أخوض في عالم تزينه الورود واللوحات.. الموسيقى والأغنيات.. والأقنعة التي تخفي تحتها أسرار الرومانسية والثورة الفرنسية..

انتابتني ارتعاشة من يسقط في الماء البارد.. فيها مزيج من رهبة الماء.. والخوف من عدم القدرة على مقاومة التيار.. والإحساس بالمتعة..

Digitized by Google

هكذا بت اقترب من الهوس بخطى متحمسة.. وباندفاع يسهرّني لوقت متأخر ويوقظني في وقت مبكر.. ويملأني نشاطاً كي انهي ما تكلفني أمي به من أعمال وأهرول إلى حاسوبي.. وابدأ عزفاً ديناميكياً على الكيبورد.. لأشبع رغبتي في الاستزادة عنها.

روز فرساي كان عنواناً استدرجني لاقتحم مواقعَ بلغات مختلفة.. ما كنت لأفهم منها شيئاً لولا الاستعانة بالقواميس والبرامج المترجمة.. معظمها كانت منتديات ومدونات لمعجبي المانجا ومعجبي كاتبة (la rose de Versailles - Berusaiyu no Bara) السيدة Riyoko Akeda .. هذه الكاتبة التي برعت في نحت شخصياتها بعاطفة متأججة.. وغرست في حكاياتهم مشروعها الأنثوي الرائع.. فهي دائمة التشبث بصور النساء القويات.. المحاربات.. بكبريائهن كأنطوانيت وفكيكو وإليزابيث.. بذكائهن كديباري وبولیناك وجان فالوا وميسا كاي.. بطيبتهن كناناكو وروزالي.. والاهم ببسالتهن مثل اوسكار وري واوريهارا وكلاودن..

لذلك تألقت أعمالها رغم كل تقولات عشاق الباربي.. ويا لكثرتهم.. رواد الثقافة الاستهلاكية التي شوهت الحضارة الأوربية.. وسلبت الغرب روحه البرية ومسخت روح الشرق الملأى بسحر الخيال والبطولة..

في معرض بحثي عن القصة الحقيقية.. أو ما تبقى منها.. كان لابد من أن أعرّج على ما تحفظه الوثائق وكتب التاريخ عن (chevalier de Jarjeyes).. ويؤسفني أنني لم أجد شيئاً يؤكد لي صحة معلوماتي.. حتى الصفحة المتوفرة على موقع

Digitized by Google

الويكبيديا والصورة الملصقة إلى جانبها لم تحل المعضلة التي كنت واقعة فيها..

فبالرغم من وجود فارس في الحرس الملكي يحمل اسماً ولقباً يماثل اسمها ولقبها.. إلا أن الكثير يذهبون إلى الاعتقاد بعدم وجودها أو أنها مجرد تحوير لقصة Chevalier d'Eon..، لكن ذكرها تراءت لي في مذكرات كازانوفا وفي رواية الكسندر دوماس عقد الملكة وقصة شبح الأوبرا وحكاية البيت الأحمر والحكاية الأصلية لسندريلا وأسطورة زورو..

ما بين أن أؤمن بوجودها ولا املك القدرة على إثبات ذلك أو توضيحه.. وبين ما وجدته من أثر مثبت فيه الكثير من الخلط والمغالطة حول قصتها.. ضعت.. وكيف لا أضيع.. إن كنت افترض أن ما عرفته من خلال مناماتي وتصوراتي هو أكثر دقه مما موثق.. مهلاً.. مهلاً.. لما لا تكون فرضياتي عنها هي التي تحمل الخلط والمغالطة.. لا زلت ابحث عن الأجوبة.. استنطق جدران قصرهم..، شوارع باريس.. وممرات فرساي.. لكن تلك الصور لم تنطق.. لم تجبني.. لم ترح قلبي..

"لا أحدٌ يعرِفُ شيئاً عن قبر الحلاّجِ
فنِصْفُ القَتلى في تاريخِ الفِكْرِ،
بلا أسماءْ.. ."

Digitized by Google

الفصل الثاني

(1)

- الو.. مرحبا
- الو.. دينا.. أهلا وسهلا.. متى عدت من بيت خالتك..؟
- البارحة عدنا في وقت متأخر من الليل.. وأول شيء فكرت القيام به اليوم هو الاتصال بك.. كيف حالك..؟
- بخير.. وأنت هل استمتعت بوقتك..؟
- إلى حد ما.. تعرفين أحيانا نلتقي بأشخاص.. نتمنى لو أن حياتنا مرت دون أن نتعرف عليهم أبدا"..
- من تقصدين..؟
- أتذكرين وسن.. وسن أخت وليد.. اكتشفت أنها مؤخرا استأجرت بيتاً بجوار بيت خالتي.. وقد صادفتني عندهم.. وكم تمنيت أن املك قدراً من الجرأة والوقاحة لأذهب واسألها.. تمنيت أن اصرخ بوجهها.. وأقول لها أيتها اللئيمة.. ما الذي يجعلني غير مناسبة كزوجة لأخيك.. وما الضير إن كان طولي 153سم.. لطالما قالوا أن المرأة القصيرة تجلب السعد لبيت زوجها.. لكنني والحمد لله تمالكت نفسي في اللحظة الأخيرة
- الحمد لله..
- (طيب).. ما بك..؟
- لا شيء.. لا شيء على الإطلاق..
- لا يمكنك خداعي.. أنت شاردة الفكر.. ونبرة صوتك غريبة..

Digitized by Google

- حسناً.. إنها.. إنها.. الأحلام.. مؤخرا بت أحلم بأشياء غريبة..

- مثلاً..

- مثلاً ذاك الحلم الذي أخبرتك عنه حينما قُتلت في النهاية..

- اعتقد أننا تحدثنا عن تفسيره وانتهى الأمر..

- هل تعتقدين أنني سأقتل..

- لا.. الله لا يقدر.. لم تسألين هذا السؤال.. هل رأيت مجدداً حلماً مشابه..؟

- منذ عدة ليالي التقيت بالليدي اوسكار في منامي.. أنت تذكرينها أليس كذلك..؟

- نعم.. نعم.. لكنني لا احسبه أمراً مهما.. ربما ما تمرين به ليس سوى فراغاً عاطفياً..

- ماذا..؟! لكنني التقيتها حقاً حتى أنها قالت لي أن اسمها ليس اوسكار إنما ماري فرانسوا

- حسناً.. هل أخبرتك أن ابنة خالتي الشيطانة تلك من مواليد ال1994.. ومع هذا صارت أماً وبدت وهي تحمل الطفل بين يديها امرأة حقيقية.. فما الذي ينقصنا لنكون مثلها.. هل للأمر علاقة بالجينات الوراثية فأمها، اقصد خالتي، قد تزوجت وأنجبت في سن مبكر أم أن الفضل يعود للبرتقالة والمدبلجات التي نشأ هذا الجيل عليها فكبر قبل أوانه.. فيما بقينا نحن نحلم بالدوق فليد والليدي اوسكار؟

- حسناً دينا اعذريني أمي تنادي عليّ.. سأتصل بك فيما بعد.. بلغي سلامي وتهنئتي لعائلتك.. وان شاء الله يأتي عن قريب اليوم الذي نفرح بك فيه.. عروساً وأماً..

Digitized by Google

- هل انزعجت مما قلته وتودين التخلص مني سريعاً..؟

- أبداً.. غير أن لدي أعمالا منزلية علي القيام بها.. مع السلامة..

- مع السلامة..

لم تكن دينا يوماً مناسبةً لي كصديقةً مقربةً.. فنحن مختلفتان جداً عن بعضنا وكثيراً ما نفتقد لغة التفاهم بيننا.. غير أن ضيق الخيارات دفعني نحو رفقتها..

حاولت أن أتناسى ما قالته لي ولكنني لا أستطيع.. أعلم أنني لست الأسوأ حالاً في هذا العالم.. وما أمر به قد لا يقارن بما يمرّ به كثر في هذه الدنيا.. مع هذا فانا لا أجد أي مبررٍ كافٍ يسمح للناس بإيذاء مشاعري.. وما من عزاءٍ يمكن أن أشيع به طيبتي المطعونة..

- طيب.. مرحبا..

- أهلا زياد.. اعتقدت انك busy..

- كنت.. لكنني الآن عدت On line.. كيف حالك..؟

- بخير.. أرسلت لك بطاقة تهنئة برأس السنة..

- لم استلمها..

- يا للأسف.. لقد حرصت على التقاط صور الورد المرفقة بها بنفسي..

- لا تأسفي اعتبريها وصلت.. وسأرد في القريب العاجل..، ما أخبارك..؟

- عدت للماضي..

- الانيميشن..؟

- كيف عرفت..؟

Digitized by Google

- أولاً من صورتك في الفيس بوك.. . ثانياً لأنني أيضاً أعيد مشاهدته.. اليوم انتهيت من عدنان ولينا وسأبدأ في الغد بمتابعة فلونة..

- هل تسخر مني..؟

- لن اسخر منك إلا إن كنت تشاهدين البوكيمون..

- لا.. أتابع الليدي اوسكار.. حصلت على نسخة DVD ناطقة باليابانية ومترجمة إلى العربية

- لكن دوبلاجها كان جيد.. أتذكر أن معظم الأصوات كانت عراقية

- نعم.. صحيح..، زياد.. أود أن أخبرك بأمر غريب يحدث معي..

- تفضلي..

- مؤخراً.. في أحلامي.. التقيت بالليدي اوسكار..

- حسناً..

- في البداية.. قلت لنفسي أن ما يحدث معي هو نتيجة فراغ عاطفي.. أو محاولة في الهروب إلى الخيال.. لكن الأمر لم يكن كذلك.. الأحلام بدت واقعاً غريباً..

- كيف..؟

- أول مرة التقيتها.. . تضايقت من وجودي.. في المرة التالية كانت تطرح الكثير من الأسئلة.. ضمنها عن حال المرأة بعد مرور مائتا عام..

- وبماذا أجبتها.. .؟

- لذتُ بالصمت.. حنجرتي كانت مجروحة وصوتي مبحوح.. وأفكاري مشتتة..، غير إنني استمتعت بمحادثتها في المرة الثالثة..

Digitized by Google

أخر مرة التقينا فيها.. صافحتني.. وأخبرتني أن اسمها هو ماري فرانسوا.. وطلبت مني أن احكي لها ما سيحدث لها في المستقبل..

- وهل كانت تتحدث العربية، الفرنسية.. أم اليابانية (سمايلي يدخن سيجارة)..؟

- بدأت تسخر مني..؟

- أبداً.. إنني أسألك بشكل جدي..

- لا يمكنني أن اجزم.. لكنني لا اعرف اللغة اليابانية.. ولا أجيد الفرنسية.. وكنت أتفاهم معها..! بصراحة لم انتبه.. ولم أفكر بالأمر..

- حسناً.. وهل ستحدثيها عن ما سيحدث معها..؟

- لا اعتقد..

- لماذا..؟

- لأنني لا أملك الجرأة لإطلاعها على المستقبل..

- إذن.. بماذا ستجيبينها..؟

- أتمنى أن لا أراها مرة أخرى..

- كنت أعتقد انك تعشقيها.. فما الذي حصل..؟

- لا أدري.. اشعر بارتباك فظيع.. وأخشى أن يكون الأمر هذياناً أو جنوناً كنشاط للاوعي.. بل أتمنى لو أنه كذلك.. علّني أتمكن من التحكم به..

- وماذا إن لم يكن بإمكانك ذلك..؟

- لا فكرة.. عندي.. صدقني..

- حسناً.. أعتقد انك طالما لا تملكين خيار التحكم به.. عليك مواجهته..

- سأحاول.. لكن مصيرها صعب.. لا يمكنني إخبارها به..

Digitized by Google

- وماذا إن كانت بحاجة لتعرفه.. ألا تعتقدين أن ذاك هو السبب الذي يجمعكما..؟

- (السبب)!.. هذا ما يشغلني حقاً.. لماذا أنا بالذات.. التي اختارني الله لهذه المهمة.. إن كان من الممكن اعتبارها مهمةً .. .

- ربما لان ثمة متعلقات تربط بينكما..

- ما الذي تقصده..؟

- اقصد انك طالما كنت متأثرة بها في صغرك إلى حد بعيد فربما لان ثمة ما يربط بينكما.. على الأقل من وجهة نظرك.. لذا اعتقد أن لقاءكما فرصة لتتعرفي على ذلك الرابط..

- لم اعتقد يوماً انك تؤمن بالرؤى والأحلام..

- أنا لا أؤمن بها.. إنما أؤمن بك..

- لا أعرف كيف أشكرك..

- لا شكر على واجب.. اعتني بنفسك..

- شكراً.. إلى اللقاء..

مين اللي غير شكل كل الحياة قدامي
مين اللي غير حلم كل السنين قدامي
مين اللي طمن روحي.. وبروحو قوّاني

*****

هي الحياة كده ليه بقى ليها لون تاني..
بقى ليها طعم جديد غير لي أحلامي..

Digitized by Google

شبحها كان بحاجة للمسته كي يعود للحياة.. وهو كان بحاجة لشبحها كي يخرج من وحدته ويأسه.. أهي صدفة أني شاهدت قبل قليل فيلم (just like haven).. أم أنها إشارة ما.. حسناً.. لا يزال الوقت مبكراً على النوم.. لكن صداعاً شديداً يشق رأسي.. حاولت أن أتماسك وأتناول وجبة العشاء. الحمد لله أن أهلي منشغلون بمتابعة المحاضرة الدينية.. وكل منهم متفاعل معها على طريقته الخاصة..

أمي تستدر الدموع قبل أن تستمع لكلمات (النعاوي).. أخي يفتش بتطفل عن من يعرفه بين الحضور في المجلس.. وأبي يتخذ موقف المدقق التاريخي للشيخ.. لا يمكنني الصمود أكثر.. ألم غير محدد يجتاح رأسي.. كأنها آلام الشقيقة.. تناولت حبة بندول.. وسرت بخطوات متعثرة حتى تمكنت من الوصول إلى غرفتي.. ثم فراشي.. لجأت إلى النوم..

هناك وجدتها.. ذات المكان الذي التقينا فيه أخر مرة.. ما عاد مظلماً.. كأنها ليلة مقمرة.. الأرض مغطاة بالعشب الرطب.. ونسائم خفيفة تهب بين الحين والأخر.. كنت ارتعش قليلاً..

اتجهت نحوي.. أحاطتني بغطاء تحمله بيدها.. وجلست قربي.. لم اشكرها فقد شغلني ما رأيته.. مشيها متثاقل.. ضمادات تلتف حول ذراعها الأيسر ورأسها - الجرح الذي في رأسها ذات المكان الذي آلمني الليلة بشدة- أخبرتها.. لم تعلق..

بادرتها إلى السؤال عن ما حدث.. فأجابتني: هاجمنا جمع غاضب في طريقنا إلى دار الأوبرا في باريس.. كانوا يحملون العصي.. أنا.. لا بأس بإصاباتي.. لكن André.. المسكين اعتقدوا انه من النبلاء.. كادوا أن يقتلوه..

Digitized by Google

عادت إلى الصمت والشرود فمنحتني وقتاً لأفكر (إنها ربما.. تلك الليلة التي أنقذها فيها الكونت فيرسن من أيدي الغوغاء.. هل اسألها عنها أم اترك خيار الحديث لها؟ هل علي أن اخبرها بما سيحدث؟ أم انتظر أن تسألني هي..؟ لكنني لازلت اجهل حقيقة ما سيحدث حقاً..؟) فاجأتني بقولها:

- طيب.. لا اعرف لمَ وجودك يثير بي رغبةً لم اعتدها في الحديث عن نفسي.. أحياناً تبدين لي غريبة الأطوار.. وفي الوقت ذاته أجدك مألوفة.. مألوفة بشكل يصعب عليّ تفسيره..! وكأنك جزءاً مني.. من خيالي.. أتمنى أن لا يزعجك الأمر..

- بالعكس.. ذلك من دواعي سروري..

ضحكت وقالت (اعلم).. ثم بدأت تسرد لي ذكرياتها..

(هي الابنة الثانية ل General Augustin Reynier de Jarjayes من زوجته الأولى Countess Nicole Marie التي توفيت بعد ولادة Marie François وقد كان عمر شقيقتها Anne Marie ثلاث أعوام..

- كنت المقربة لوالدي.. الأثيرة لديه حتى بعد أن تزوج من Countess Margaret وأنجبت له , Christen Emily و Jussiven..

ورغم انه لم يخف على أحد حقيقتي كفتاة إلا أن الجميع كانت يساير رغبته في تربيتي كصبي.. وفي الوقت الذي كان يتم فيه أعداد أخواتي ليكن كونتيسات متميزات في فرساي.. كان يتم أعدادي لدخول الأكاديمية العسكرية..

في طفولتي لم أكن افهم كنه الحزن الذي يرافق نظرات مربيتي نحوي.. ولم أكن اعرف سبباً للطريقة الرسمية التي تتعامل بها

Digitized by Google

أخواتي معي وخاصة أن شقيقتي (Anne) لم تكن تكبرني سوى بعدة أعوام.. لكنني كنت اعزوه إلى أنهن يعتبرنني بمثابة الأخ لا الأخت.. والأخ يتمتع بشئ مما يتمتع به الأب من الهيبة والاحترام..

تلك العزلة التي نشأت بيني وبين أخواتي لم تشغل تفكيري فقد كنت محاطة بأساتذة في المبارزة، اللاتينية، الموسيقى، الرقص، وآخرين ممن وجدوا ليهتموا بي.. بالإضافة إلى مربيتي وAndré، الدروس والتمارين لم تشغل وقتي فحسب بل استولت على اهتمامي تماماً..

في تلك الفترة لم أكن اهتم إن كانوا يخاطبونني كرجل أو امرأة بل أحيانا كنت افتخر بداخلي أنهم يعاملونني كرجل.. .، حتى التقيت بـ(Count Fersen)..

ولكم أربكني من الداخل.. ذلك الخفقان الذي رافق تدفق الدماء في عروقي حين كنت اسمع صوته! لم أكن أستطيع أن اغفر لنفسي الإحساس بتلك المشاعر نحوه.. ولم أشأ أن يعرف احد بها..)

- ألهذا طلبت منه أن يعود إلى وطنه..؟

لم يرق لها ما قلته فرمقتني بنظرة فيها شيئاً من العتب وأجابت:

- لا.. بل كنت أود حماية جلالتها مما لم استطع أن احمي نفسي منه.. هو أيضاً حاول أن يحميها حين تطوع في البعثة إلى أمريكا..، لكن رحيله في كل مرة يزيد الأمر سوءاً.. وذاك الجرح الذي حاولنا إخفاءه كان يلتهب في الداخل ويحتقن..

Digitized by Google

توقفت عن الحديث لبرهة.. ابتلعت غصتها.. أمسكت الجرح الذي استقر في احد أطراف جبينها فبادرتها بالسؤال:

- هل أنت بخير.. أتودين تغيير الموضوع؟

- لا.. فأنت الوحيدة التي سأتجرأ على الحديث معها حول هذا الأمر..

أحسست بإطراء وغمرني الفرح لكنني أخفيته لان الموقف لم يكن يسمح بإظهاره.. سرحت بأفكارها وطال صمتها.. فحاولت أن استدرجها للحديث مرة أخرى.. ولم أجد ما أسألها عنه سوى..

- وماذا عن اندريه..؟

- ما به..؟

- هل يعلم انك تهتمين لأمر الكونت فيرسن..؟

- لماذا تسألين؟

- ما من سبب محدد.. ربما لأنه الشخص الأقرب لك بتصوري..

- انت على حق.. André رفيقي الدائم ومنذ الطفولة.. لكنني اعتدت كتمان مشاعري الخاصة بحرص عن الجميع..

اما اهتمامي ب Count Fersen فكان لسبب مبرر فهو من الأصدقاء المقربين للبلاط ولجلالة الملكة وبالتأكيد لحارسها الشخصي.. مع هذا لا يمكنني أن اجزم بعدم ملاحظة André لي.. ربما هو انتبه لأمر ما.. خاصة حينما تأخر Fersen في العودة من امريكا.. وكنت متلهفةً للقاء كل من اعلم بعودته من هناك.. لأسأله إن كان قد التقى بالCount Fersen أو عرف عن اخباره شيئاً..

Digitized by Google

ثم.. تصوري أن شدة يأسي دفعتني ذات يوم لأطلب من André أن يأخذني إلى أحدى حانات باريس.. حسبت يومها أن مجالسة الغرباء ستأخذني من همومي لكنني.. تورطت في شجار عنيف..

- ما سببه..؟

- أثار اشمئزازي أنهم لم يروا بي سوى "كلب الملكة.. الضابط المخنث..! "

- ألهذا السبب رغبتي بالشجار معهم..؟

- لا.. بل هم رغبوا بضربي.. كانوا ناقمين على النبلاء راغبين بالنيل منهم.. وكنت أمامهم.. فبدوت الأنسب.. ومع هذا استقبلت ضرباتهم برضىٍ ورددتها لهم بحماسةٍ.. تسببوا لي بألم تناسيت معه حنقي وتجاوزت به بعض قلقي..

- كنت تخشين ألا يعود من أمريكا.. أليس كذلك..؟

- لكنه عاد.. عاد ليوقظ الأنثى بداخلي.. أيقظها على عجالةٍ بعد سنين من الجدب؛ سنين من العذاب.. أوقدت فيها شموعَ الاشتياقِ وأنا أصلي للرب كي يحفظه.. دموع الحبِ أدمت قلبي الصامت خجلاً.. وأذابت درعَه المتجمد..

حينما عاد.. اعتقدت أنها إشارة من القدير بأستجابته لصلواتي.. أعاده لي لأتشبث بأنوثتي.. كنت على استعداد لأتخلى عن كل شيء لأجله.. البس الفساتين واضع المساحيق.. واسرح شعري كأي كونتيسة.. كأي أمرأة تود أن تحيز على إعجاب رجل.. كنت أريد أن أعيش الحب تجربةً لا خيالاً أطارده بين الأحلام والأساطير والروايات..

Digitized by Google

وFersen.. اقصد Count Fersen.. فارساً جذاباً وعاشقاً مثالياً.. سيطرت صورته على مخيلتي.. أججت فيّ الرغبة لأكون تلك المرأة التي يراقصها.. فحاولت..، ارتديت فستاناً.. وتزينت.. لأرى أي امرأة سأكون بين ذراعيه.. عيناه تحدق بي.. يضمني إلى صدره.. يحاول أن يكتشف هويتي.. وأنا أحاول أن اكتشف أنوثتي بين ذراعيه.. شفتيه.. وعينيه.. أخبرتني انه لن يعشق سوى جلالتها.. حتى وان حاولتُ.. بل حتى وان كنت الأجمل.. لن أكون أكثر من صديق مقرب.. لذا كان لزاماً عليّ أن انسحب.. فكبريائي لم يكن ليسمح لي أن أواصل التعلق برجل قد منح قلبه لغيري إلى الأبد..

- أمير قلبي الجميل.. يختار غيري حبيبة
يا للعذاب الطويل.. ويا لهول المصيبة
عش في هناء وراحة.. فلست اغضب منك
فملء قلبي سماحة.. وسوف ارحل عنك.. . للالالالا... للالالالالاآآه

"موطني.. موطني.. الجلال والجمال.. والسناء والبهاء في.. " رنة موبايلي أيقضتني من أي من حلمي الجميل.. أي متصل مزعج هذا وماذا يريد مني في هذا الوقت المبكر:

- الو.. .
- الو.. صباح الخير (طيب)..
- أهلا (نورس)..
- آسفة لأنني أيقظتك في وقت مبكر.. لكنني سمعت أن التقديم على التعيينات قد بدأ وأن استمارة التقديم موجودة في موقع الوزارة ففكرت بالاتصال بك لتتأكدي من الأمر..

Digitized by Google

- حسناً.. حسناً.. سأفعل.. وأعاود الاتصال بك حينما احصل على المعلومات الدقيقة..
- شكراً.. مع السلامة..
- مع السلامة..

(2)

لم يكن سهلاً علي أن اسمع صوت دينا بعد الاتصال الأخير الذي كان بيننا.. . لذا أرسلت لها رسالة بالموبايل لأخبرها بالمكان والموعد..

في الساعة الثامنة صباحاً التقينا عند بوابة الكراج.. سلمت عليها بشكل طبيعي ثم ابتعدت عنها تركتها خلفي تسير الى جانب عبير لألزم صحبةَ نورس طوال الطريق..

حملنا نحن الأربعة طلباتنا بالتقديم للتعيين مع صورٍ رسميةٍ ونسخٍ ملونةٍ من وثيقة التخرج، هوية الاحوال المدنية، شهادة الجنسية، بطاقة السكن والبطاقة التموينية ووقفنا في طابور طويل..

لم يكن هذا هو الطابور الأول الذي نقف فيه بيأس ونحن ننتظر دورنا في الحصول على وظيفة.. رغم علمنا أن الوظائف التي نتقدم بطلب للتعيين فيها.. قد شغلها غيرنا في الوقت ذاته الذي نقف فيه نحن في الطابور..

نعم.. انه الفساد.. وما هو أسوأ منه أن معظم الواقفين في ذاك الطابور.. لا ينتظرون دورهم في الحصول على وظيفة بل..

Digitized by Google

ينتظرون دورهم في ممارسة ذاك الفساد "أليست الوساطة والرشوة هي فساد أيضاً..؟!" هذا ما كنا نناقشه..

فكان رأي عبير أن العمل في الدوائر بشكل عام مرهون بإجادة تلك الأساليب الملتوية في الوصول الى الاهداف.. وعلينا أن نتعلم القليل منها لنتمكن من المضي في الحياة..

وكان رأي نورس انه لو لم نكن مضطرين لسلوك هذه السبل للحصول على مستحقاتنا لما فكرنا أن نسلكها.. وقد أيدتها دينا واضافت: "طالما أن من المستحيل إيقاف ما يجري فمن الأفضل إذن أن نسايره.. "

فيما احتفظت أنا برأيي لنفسي لعلمي انه سيبدو متطرفاً بالمثالية ف(إن كنا نطمح بمحاربة الفساد علينا أن نبدأ به مع أنفسنا قبل أن نطلب ذاك من الآخرين.. اذ من المعيب أن تعلو أصواتنا المطالبة بإحقاق الحق حين يكون الحق لنا.. ونتغاضى عنه حين يكون علينا.. .)

ما إن اقتربنا من الشباك الذي يتم من خلاله تسليم المعاملات.. حتى صار بإمكان دينا أن تقترب مني.. بل وتنفرد بي لدقائق.. استغلّت تلك الفرصة لتهمس في أذني:

- ما أخبار صديقتك اوسكار.. أو مهما كان الاسم الجديد الذي اطلقته عليها..؟ أتراها تعلم انك ترتدين هذه العباءة السوداء..؟ أراهن أنها لو رأتك لأرهبها منظرك.. وربما تقطع رأسك دون أن تتعرف عليك..

وجهها كانت تعلوه ابتسامة ساخرة.. لم أرها.. لأنني لم التفت إلى الخلف.. لكنني شعرت بشفتيها تغطي كل ما يمر عبرها

Digitized by Google

بالعلقم.. أجبتها بلا مبالاة: هي تعلم بأني مسلمة.. ولم يزعجها الأمر..

ازداد مقدار العلقم الذي تسكبه شفتاها.. وعلا صوت سخريتها:

- أتعلمين لماذا هي لم تمانع..؟ لأنها ليست حقيقية.. هي ليست سوى صنيعة أفكارك المشبعة بالخيال، طيب أصحي ما من فرنسي يمكنه أن يحب العرب أو المسلمين..

لوهلة كدت أن افقد صوابي معها.. فألفظ غضبي عليها.. لولا أنني فوجئت برانيا وهي تقتحم الطابور.. تسحبني منه قليلاً وتسلم علي بلهفة وتطبع على خدي قبلاتها بقوة كعادتها منذ عرفتها في الماضي.. سألتني:

- ما الذي تفعلينه هنا..؟

ثم تبعتها بقولها:

- آآه أنت هنا من اجل التعيين.. وأنا أيضاً قدمت طلباً للتعيين معكم.. مع أنني اختلف قليلاً بكوني موظفة هنا بعقد من الوزارة.. ربما سيكون حظي أوفر..

قاطع حديثها صوت الموظف بقوله (التالية).. فاتفقنا أن تنتظرني في الكافتريا القريبة.. وبالفعل وافيتها إلى هناك فوراً بعد انتهائي من الإجراءات دون أن التفت إلى دينا فالإهمال.. هو الرد الذي كانت تستحقه..

حينما وصلتُ إلى الكافيتريا رأيت رانيا تتوسط مجموعة من زميلاتها (الموظفات بعقود).. لوحت لي بيدها.. وهي تشير إلى كرسي فارغ أعدته لي بجانبها..

أمضينا ساعةً تقريبا في تناول أحاديث عامة.. تبادلنا أرقام الموبايلات وعناوين البريد الالكتروني.. ووعدتهن أنني سأقبل

Digitized by Google

صداقتهن في الفيس بوك.. ثم ودّعتهن لألحق برفيقات الطريق نورس، عبير ودينا..

الطرق كانت تعج ب(المشاية).. المواكب تنتشر في كل مكان.. لكل موكب مكبرة صوت خاصة به تبث ما يرغب به ويهواه من اللطميات التي تمتزج لتخبرنا أننا غير قادرين على أن نتوحد حتى حينما يكون الهدف الذي نرجوه واحداً..

"أبهضم فرگاك مصيوبه وعليه المحن من كل صوب..
وأشوفك يبني عالغبره بدر وأعله الترب مصيوب
أنحجب نورك ينور العين وأحوم أعله الصبر جم دوب
حرت بهموم دنيايه.. . إجيت و حزني ويايه
إعتنيت إبروح شجايه.. .أشكي لك هضم دنيايه
أصرخ والدليل إيلوب
بدمع عيناي ناديتك.. .. ترد وياي باريتك
يمن همي مثل همك.. .. أعوفك لو أظل يمك
يالأكبر گوم حاجيني.. سلبت النوم من عيني"

لاحظت أمي آثار البكاء في وجهي عند عودتي، سألتني إن كان قد صادفني أمراً مزعجاً.. لم اجبها فلم تتكلف الاصرار على معرفة السبب فقد كانت مشغولة بأمروتود إخباري به.. اذ أن ثمة امرأة التقتها صباحاً في احد (القرايات) واكثرت من السؤال عني.. فاستنتجت أمي من طبيعة أسئلة تلك المرأة أنها ربما ستقصدنا قريباً لغرض الخطبة.. .

ولم يخب ظن أمي فقد زارتنا تلك المرأة عصر اليوم التالي.. كانت زيارتها قصيرة ورسمية وواضحة المأرب.. لم تستغرق الكثير من الوقت لتفتح الموضوع.. بدأت باستعراض مزايا ابن

Digitized by Google

أختها والتوصيات التي شدد عليها في عروسه.. فهو يريدها ذات شهادة جامعية عالية.. هادئة لا يسمع لها صوت.. ولها نصيب من الجمال.. ليست موظفة ولا راغبة بالتعيين بل ولا تفكر بالعمل أبداً.. لتكون قادرة على خدمته وتلبية رغباته..

لم أُبدِ أي ردة فعل بحضور الضيفة.. لأنني لم أتصور أن الأمر يستحق المناقشة أصلاً.. لم اتأخر في إخبار أمي عن رفضي غيرَ ان ردها كان:

- ما تتمناه أي فتاة بسنك هو الزواج من رجل محترم من عائلة مرموقة.. هل هذا هو المصير الذي تشتكيه..؟

- بل اشتكي من الارتباط برجل لا أعرف شيئاً عنه سوى.. انه لم يزعج نفسه حتى في محاولة التعرف إليّ وكأنه يعتبرني بضاعة أوصى أحدهم التكفل بها.. اشتكي من الارتباط برجل يعتقدني جهازاً متعدد الاستعمالات.. أو دميةً تحمل شهادة مطابقة للمواصفات.. أمي.. أنا إنسان.. أريد العيش مع من يتذكر ذلك..

- لكن أباك موافق.. بماذا أرد عليه..؟

- هذا ليس شأنه.. إنه شأني.. وانا ارفض رجلاً يخطبني بهذه الطريقة..

- إذن.. فأنت تعصين أباك..!

- تعلمين أنني طالما اخترت إرضاءه.. وطاعته..، فأرجوكِ يا أمي.. ارحماني وتوقفا عن التسبب بشقائي.. (آآآآه)

اوقفت صفعتها كلامي.. فبقيت للحظات أحدق فيها.. فيما راحت هي تدمدم:

- أيتها الوقحة.. لم يكن بجدر بك أن تقولي لي.. أنا أمك التي دفعت في تربيتك دموع عينيها.. هذا الكلام، وأي شقاء هذا الذي

Digitized by Google

ندفعك نحوه..؟ هل دفعناك إلى الشارع.. هل رميناك للكلاب؟ ها أجبيني.. تباً للتلفزيون.. والانترنيت.. ولتلك الكتب وما فيها من ثقافة.. تلك السخافات أفسدتك..

خرجت وأغلقت الباب خلفها بقوة.. لم يدهشني ما قامت به.. لكنني لم اعتده رغم تكراره فحسب..، كنت في لجة غضبي حين انتبهت لنفسي.. قبضتي تنزف.. وأنا أقف.. محاطة بحطام مرآتي.. وهي.. صورتها في كل الشظايا.. كانت واقفة إلى جانبي.. بقامتها الممشوقة وجسدها النحيل.. وجهها لازال يشع بهاءً رغم شحوبه.. جبينها عالٍ كأنه جبين ملكة توجّه شعر ذهبي متموج.. حاجباها كثيفان قليلاً.. كأنهما رُسما بدقة.. مستقيمين مع زاوية خفيفة في المنتصف.. وارتفاعاً بسيطاً عند النهايات.. عيناها تحتفظان بياقوتتين في محجريهما.. رموشها متوسطة الطول داكنة اللون.. انفها رفيع يبدأ بحدبة طفيفة وغير واضحة.. ينتهي قرب شفتين رقيقتين لفم متوسط الحجم حسن الرسمة احتضنتها بقوة وبلا وعي أجهشت بالبكاء..

"لمني بشوق واحضني..
غرقني ببحر عينك.. نسيني الألم كله.. تقرب والعتب خله..
اغسل كل شقا سنيني.. وامسح دمعتي بعيني
تراها جرحت جفني.. "

- يكفي.. يكفي.. يا كثيرة البكاء.. حسبتك تقولين انك تشبهينني..!

- وأنت ألا تبكين..؟

- آه.. أي عسكري سأكون لو استسلمت للبكاء، هل تحسبينني قائداً يسهل أضعافه وتحطيمه..؟!

Digitized by Google

- لكنك تبكين الآن..!

- أنا.. لا..! لا ابكي.. أنها دموعك أنتِ..

- ربما.. تلك دموعي فحسب..، كولونيل.. لست مثلك.. أنا تعبت من الوقوف فيما يستسهل من حولي الانحناء.. تعبت من المكابرة فيما تستمع الأخريات بالذل..

في مجتمعٍ يعج بنساء ينشدن مكاسباً ليغضن بها الأخريات.. ويرغبن بمزيد يكمم أفواه العذال.. أبدو لهم متعجرفة.. ومغرورة.. لأني أنشد ارتباطاً روحياً وتواصلاً عاطفياً.. وأريد خياراً أفضل.. في حياتي التي سأحياها مرة واحدة..

لمَ عليّ أن اربط حياتي الثمينة بحياة رجلٍ لا يفهمني؟ ولا يريد أن يتعرف عليّ أصلاً ليفهمني.. ويكفيه أن يجد طريقه ليستمتع بجسدي فحسب كما لو أنني جارية..!

اغمري ملامحك بالمساحيق وتزيّني له.. البسي كل ما تملكيه من الحلي الذهبية..! لا تدعيه ينتبه أن لك حساً.. أو فكراً.. أو حتى لساناً..! ويستحسن لو جعلته يعتقد انك لا تجيدين سوى تحريك رمشيك.. والابتسام والامتثال لما يريده منك..

تباً لذاك الاستعراض الذي يدعونه زواجاً.. وهو في حقيقته ليس سوى صفقة بينهم..! هم يبيعون وهو يشتري وأنت عليكِ إن تفخري لأنهم يعاملوك كجوهرةٍ ثمينة.. يعرضها بائعوها بحرص.. ويتفحصها الشاري بتمعن.. ليتأكد من قيمتها..!

فهل اقبل وأنا الحرة..؟ هل انحني لهم..؟ هل استسلم.. وأسلم عنقي لمذبحهم؟ هل امنحهم حياتي التي لا املك سواها..؟ كولونيل.. لم أنت صامتة..؟ أجيبيني..!

Digitized by Google

- حسناً.. يبدو موقفكِ صائباً، ولكن.. لو أنك تجدين أسلوباً آخر للتعبير عنه.. أسلوباً غير الشجار.. والمواجهة مع والديكِ..

- أهذا ما ستفعلينه لو كنت مكاني..؟

- أنا.. هاهاها.. دعكِ مني.. لست نافعة لمثل هذه المواقف.. أضيفي لذلك أنني في ورطة أيضاً.. فقد تقدم لخطبتي Victor Clemente Girodelle..

في البداية.. بدا الأمر مضحكاً ويشبه المزاح الثقيل.. لكنه كان واقعاً يحتم علي أن أتعامل معه.. حاولت أن استوعب الأمر..، ما الذي دفع Girodelle لخطبتي..؟! كيف فكر بي.. ما الذي يجعل رجلاً مثله يرغب بامرأة مثلي.. انه امر يثير الاستغراب حقاً..!

وماذا عن والدي..؟! لم رباني كرجلٍ عسكري.. وأرادني أن أكون صلبةً مجالدةً.. دفعني لأتحمل قسوة الحياة في تناقض مستمر.. والآن..! بعد كل ما قمت به يريدني أن أتقاعد.. وأتزوج كالفتيات رجلاً يختاره لي هو.. لأنجب له الحفيد الذي يريد..!

لا ادري هل فقدا رشدهما.. أنهما يصيبانني بالجنون.. كيف أكون برأييهما كولونيلاً يجيد وضع الخطط العسكرية.. وينجح في قيادة الجنود.. ثم يحتاج إلى من يخطط له مستقبله ويملي عليه قراراته الشخصية في نفس الوقت..؟!

- وهل أخبرت أحداً عن رأيكِ بالامر..؟

- أخبرت والدي بأنني غير موافقة على الزواج.. فتجاهل التفاصيل.. وأعلن عن حفلٍ دعا إليه كل النبلاء ممن يرغبون التقدم لخطبتي.. معتقداً انه يمنحني الفرصة لاختار.. وأن الأمر قد سوي بهذه البساطة..، اعتقد انني قد أحضر تلك الحفلة..

Digitized by Google

لأتسلى بالسخرية من أولئك النبلاء المتعجرفين..، أو ربما.. لن احضرها حتى..

- عذراً على التدخل ولكن ما الذي يمنعك الاختيار من بين أولئك الخطاب الراغبين بك زوجاً..؟

- هل أنت جادةٌ بسؤالكِ..؟!

- نعم..

- لأنه ما يريدوه مني لا يتعدى الرغبة بامتلاك هذه الدمية الغريبة.. لتزين قصرهم وتسلي ضيوفهم، عوضاً عن ذلك فانا الوريثة الوحيدة لعائلتي.. وذلك سبب كافٍ ليجمع حولي الكثير من الخطاب الطامعين بالثروة..

- وما الذي سيحدث عندها..؟

- ربما سيظن الجميع أن Victor هو المرشح الوحيد للفوز بي..، يا للسخرية ها أنا أصبح جائزتك يا Girodelle..، ولكن.. ألا يجب أن أكون أنا من يسألك عن ما سيحدث.. يا طيب..؟! لقد قطعتِ لي وعداً.. فأين ما وعدتني به..؟

ارتبكتُ.. وارتعشتُ..، طبعاً ليس بسبب سؤالها بل بسبب الكمادة الباردة التي تغطي جبيني.. فمن الواضح أنني كنت محمومة طوال الليل..

(3)

أحياناً.. تسلبني الدهشة وقتاً من المفترض أن أستمتع به.. وقتاً أحاول أن أفهم فيه.. (أين أنا؟ - تحديداً-)

Digitized by Google

الجدرانُ مطليةٌ بلونٍ ذهبيٍ باهت.. فيه نقشٌ لأزهارٍ ناعمةٍ قرمزية اللون.. وأوراقٍ بلون خاكي فاتح.. على احد الجدران ثمة لوحتان محاطتان بأطر ذهبية.. الأولى لسيدة ذات جمالٍ راقٍ.. أما الأخرى فلسفينةٍ تتخبط في بحر هائج..

السريرُ في وسط الغرفة.. يطلّ على شباك وشرفة.. وفي الجدار المقابل له مدفأة..، الرسومُ والنقوشُ المزينةُ للسقفِ وزوايا المكان.. التفاصيلُ الدقيقة والألوانُ.. تغريني لألمسها.. أتفحصها بأناملي.. محاولة أن أخمن.. أين أنا الآن..؟

حاولت ان اتمعن فيما حولي..، هنالك بابان.. لا اعرف أيهما سيمنحني الإجابة.. اخترت الأقرب إلى الأصوات التي بدأت أسمعها.. فتحته بحذر.. لأطل على بهو صغير.. فيه كومدينو عليه زهرية تحوي باقة من الورودِ بألوان مختلفة.. ومكتباً عليه بضعة كتبٍ وأدوات كتابة.. تقابلهُ أريكةٌ أرجوانية اللون.. تتوسط السقف ثريا كبيرة.. تحتها مباشرة بيانو.. درت حوله..

بدأت دهشتي تتحول إلى رهبة لان تصور ما بدأ يتسلل إلى ذهني.. لكن الأصوات التي بدأت تعلو اجتذبتني لاتجه نحوها.. في محاولة لدحض تصوراتي أو تفنيدها..، ما إن خرجت من باب البهو حتى أدركت أنني في بيت ضخم.. ربما هو فيلا.. أو قصر..

بعد أن تجاوزت السلم بسرعةٍ وحذر.. ووطئت الطابق الأرضي.. منحتُ لخطواتي الحرية لتتابع استكشافها.. لكنني فوجئتُ بصوت أقدام تقترب.. ففتحت باباً تسنى لي رؤيته.. ودخلت مسرعةً.. لأجد نفسي في غرفة ذات تصميم مكتبي.. لم أتمكن من التدقيق في تفاصيلها.. لأنني كنت مشغولةً في البحث

Digitized by Google

عن زاويةٍ اختبأ فيها.. فوقعُ الأقدام كان يقتربُ أكثر.. وكأنه يلاحقني..

فتح الباب.. ألصقتُ جسدي بين الجدار والمكتبة.. دخل احدهم وأغلق الباب خلفه.. تجمدتُ حين التقت أنظارنا..، كان رجلاً بثياب غريبة تشبه الأزياء العسكرية للقرون الوسطى.. توجه نحوي.. وراح يدقق النظر.. كاد أن يغمى عليّ لولا انه استدار وتوجه نحو النافذة.. وجوده بحد ذاته يزرع الرهبة في المكان..

ورغم أن ملامحه الغاضبة بدت مألوفة لي.. غير أنها لم تشغلني قدر انشغالي بعدم رؤيته لي.. فهل أنا غير مرئية بالنسبة له..؟ وهل املك حرية التحرك دون أن اجتذب النظر..؟! لا يبدو لي الأمر مطمئناً لذا سأبقى حيث أنا وأراقب حتى تتوفر لي الفرصة لأهرب من هذا المأزق..

ترافق سماعي لأصوات في الخارج- لم أتبينها- مع رنين جرس يدوي حركه ذاك الرجل.. فُتح الباب ودخلت امرأة كبيرة السن.. حدثها آمراً زاجراً وردت هي ببضع كلمات وإيماءة بالرأس.. أما أنا فلم افهم كلمة واحدة.. تلك اللغة الغريبة.. لا يبدو انها إنكليزية..

مرت لحظات ثم طُرقت الباب بهدوء.. وفُتحت.. ليدخل فارس كان.. هي ماري فرانسوا..! استغربتها لأول وهلة.. فقد بدت مهيبةً بملبسها العسكري.. تقدمت نحوه.. تحيتها له صاحبتها طرقةً من كعبي قدميها.. أيعقل أن يكون هذا الرجل والدها..؟! أنهما رسميان جدا مع بعضهما.. أشار لها أن تجلس إلى كرسي قريب.. ثم بدأ يهدر حديثه بغضب.. وبدل أن يستمع لردودها أو يحاورها.. اتجه نحوي..!

Digitized by Google

اخذ سيفاً كان معلقاً على الجدار الذي أقف بقربه.. وضعه أمامها.. جرد سيفه.. وصرخ بها أمراً.. كان من الصعب علي أن افهم بدقة ما الذي يحدث.. لكنني شعرت به يدعوها للمبارزة والدفاع عن نفسها..

أمسكت ماري ذاك السيف.. صوبت نظراتها إلى عيني والدها.. عيناها كانتا مملئتانِ بالدموع.. وقفت.. أعادت له السيف.. وقالت شيئاً يوحي برفضها لتلك المبارزة.. الغريب أنني لم افهم أياً مما كانت تقوله هي أيضاً..! ليتني تعلمت اللغة الفرنسية..، لم يعرّ والدها ذاك الرد أهمية.. ورفع سيفه ووجهه نحوها..

لم أتحمّل رؤية ما يحدث.. هرعتُ محاولةً أن امسك بيده.. لكنني لم افلح- إذ لم أكن لا مرئية فحسب.. بل ولست محسوسة أيضاً- كاد السيف أن يحصد رأسها لولا أن صده سيف جندي وقف حائلاً بينه وبين ابنته - لابد انه اندريه-.. أدى له التحية حانياً رأسه بحركة بسيطة.. ثم بدأت المبارزة بينهما.. صليل السيوف ملأ المكان.. واشتد النزال لكنه سرعان ما حسم لصالح أندريه..

غلبت الدهشة على الجنرال جرجايز فقد كان لفارق السن أثراً في إعاقة حركته.. وكذلك في اتساع حيلته.. إذ سارع بشهر مسدسه.. وصوبه نحو رأس ابنته.. عندها رمى أندريه سيفه على الأرض.. وسارع لحشر نفسه أمام فوهة المسدس.. وراح يترجى الجنرال.. لم احتج لمعرفة ما يقوله لأفهم ما باحت به تعابير وجهه.. وصوته..

كان ألمه واضحاً.. وهو يقف عاجزاً في مواجهة الجنرال وثنيه عن النية في قتل ماري فرانسوا..، لكنه لم يستسلم في محاولة

Digitized by Google

إنقاذه لماري.. رفيقة طفولته.. والصديق الأقرب له وربما الوحيد.. إنها ماري فرانسوا السيدة التي عاش كل حياته في خدمتها.. المرأة الوحيدة التي أحبها وكتم حبها.. كيف يفترض به ان يراها تواجه الموت ويقف متفرجاً..

أمام إصرار الجنرال على إتمام مهمته.. . ظل أندريه متسمراً بين فوهة النار و جبين ماري.. ولم يتراجع حتى بعد أن سمع حركة الأصابع المطبقة على الزناد وهي تستعد للإطلاق.. غير أن صوتاً قادماً من خلف الباب.. كان كفيلاً بإيقاف المأساة التي كادت ان تحدث..

عدةُ طرقاتٍ على باب المكتب.. ثم فتح ليدخلَ الطارقُ.. ذو ملبسٍ باللونين الأزرق والذهبي .. صارمٍ في أناقته.. توقف بعد ان تقدم بضعَ خطواتٍ.. اخرج من جعبته كتاباً وراح يتلوه.. ثم سلمه للجنرال وخرج.. تبعه الجنرال.. فيما بقيت ماري واقفةً حيث هي.. وقد اتسعت حدقتاها.. وغرق وجهها بالدموع.. مرُّ أندريه بالقرب منها نظر إليها ثم اطرق هو الأخر خارجاً.. لولا أنها نادته بلكنةٍ فرنسيةٍ (اندغيه).. التفت نحوها.. عاد لها بخطى بطيئة.. كلاهما كانا يرتعشان..

Quitter ma vie sans préavis.. Je le ferais si tu m'aimes.. Míme si j'ai tort.. Tout est plus fort.. Que la raison tout est plus fort que ton nom

Que je redis que j'écris sans arrít.. Sur les écrans de ma vie.. Et j'espère que chacunes des aurores

Digitized by Google

Que je vois me mènera à ton corps.. Je
..quitterai tout si tu m'aimes
Je sais que je n'me trompe pas.. Que
quelque part au loin là- bas.. Tu penses
..encore à moi.. Tu m'as gardé dans tes bras

ولا أتذكر مما جرى بعد ذلك سوى.. سماعي ل صوت الرعد أيقظني.. وهطول المطر الغزير على نافذتي كأنه عناق حميمي ارتعش جسدي متأثراً به.. إذن سيكون أسبوعاً ممطراً فالجمعة الممطرة تنبئ بأسبوعٍ حافلٍ بالأمطار..

Digitized by Google

الفصل الثالث

(1)

منذ أن دخل الجيش الأمريكي إلى بغداد.. لم يتجمهر العالم العربي أمام شاشات التلفاز بهذه الحماسة باستثناء مباريات كرة القدم.. لكن الأمر هذه المرة مختلف.. بل مختلف جداً..

علا موجُ الشباب التونسي الغاضب فأفاض بثورة الياسمين.. فابتدأ عصرٌ جديدٌ عاد فيه نبضُ الجماهيرِ إلى الشارع.. عصر عادت فيه صورة الشعوب إلى الواجهة.. عصر ابتدأه الشاب محمد البوعزيزي في يوم الجمعة 17 ديسمبر 2010 بإحراق جسده فكان رمزاً لجيل احترق لسنوات بصمت.. وكان الأوان قد آن ليقول كلمته.. تبعه مجموعة من الشباب بإحراق أجسادهم في دول مختلفة.. عسى أن يجتذبوا العالم لقضاياهم.. . وثارت من بعده الحشود راغبةً في تحقيق مطاليبها

"وحدن بيبقو مثل هالغيم العتيق.. وحدهن.. وجوهن وعتم الطريق..

عم يقطعوا الغابي.. وبأيدهن مثل الشتي.. يدقوا البكي.. وهني على بوابي..

يا زمان.. من عمر فيّ العشب عالحيطان..

من قبل ما صار الشجر عالي.. ضوي قناديل و أنطر صحابي..

مرقو.. فلو.. بقيت عبابي.. لحالي.. "

Digitized by Google

انه عصرٌ جديد.. كل من يظهر على التلفاز رددها.. كل أصحابي في النت رددوها.. كذلك أمي وأبي وأخي.. وربما الناس في الشارع أيضاً يتحدثون في الأمر..

(ثار الشباب في تونس..) رغم أن الثورة لم تقتصر على الشباب إلا أن الجميع كانوا يرددون (ثار الشباب في تونس).. حاولت أن اردها معهم.. فأحسستُ بغصة..

غصةُ العجز المغروس كالمدية في رؤوسنا.. نحن الذين مازلنا نقبع في الظل.. ننتظر أن يوزعوا علينا حقوقنا ويمنحونا حريتنا كالحصة التموينية..، لكن ماذا إن لم تكن هناك بطاقة أو مركز أو حصة.. ماذا إن كانوا قد وزعوا كل شيء بينهم فيما نجلس نحن هنا كالدجاج في الأقفاص.. يأكل البقايا والنفايات.. ويجيد تنظيف ريشه ووضع البيض.. البيض الذي سيأكلونه هم في كل صباح..!

ثار الشباب في تونس.. وسيثورون في مصر وربما هناك المزيد.. أما نحن فلا زلنا سكارى بدمائنا التي أفاضها علينا الإرهاب.. مشغولون بإحصاء قتلانا وجرحانا ومعتقلينا.. ففي لعبة الإرهاب.. يغدو الشعب في ذات الأوان الضحية والجلاد..

كنا ننام ونصحو ملهوفين على أخبار الثورات.. نتنطر ومضاتها وهي تتقد.. نتتبعُ مسيراتها وهي تشتعل بالغضب.. نغمس لقيماتنا بشعاراتها.. نخلط مشاريبنا بنوادرها.. نذيب برد شتائنا بحريق هتافاتها.. هاهو الشعب قد عاد يريد.. بل ها هو الشعب يقف لأول مرة ليريد.. يريد خبزاً.. يريد عزاً.. يريد حرية.. يريد إسقاط النظام.. يريد إصلاح النظام.. المهم انه يريد.. وأنا أيضاً كنت أريد..، ولكنه أمر مؤسف حقاً.. فما إن أدور بنظريّ حولي حتى أكتشف أن الربيع لا يزال بعيداً.. ولم يصل

Digitized by Google

لنا بعد.. فلازال أبي يتغنى بماضيه النضالي.. وبأمجاد أجداده العصاميين.. لازال أخي يجمع ويطرح حتى تحية الصباح.. ليتأكد انه قد تمكن أخيراً أن يتفوق علي ولو في الظاهر..

(أيها العزيز.. بكل طيب خاطر أنا أتنازل عن كل ما حققته من تفوق في الماضي لأقول انك هنا الأفضل طالما انك رجل وتعرف من أين تؤكل الكتف..!)

أما أمي.. فرغم أنها قد أضافت لمشاغلها الدينية والوظيفية والمنزلية والنسائية متابعة أخبار ساحات التحرير والتغيير في تونس ومصر.. والبكاء على الشهداء والجرحى ألا أنها لازالت غير متعاطفة معي في مسألة الانترنيت ..

ومع أنني أحاول استثارة عواطفها بالحديث عن نشاطات أصدقائي المشاركين هناك وأخبارهم التي كنت أتلقاها عبر الفيس بوك.. إلا أنها وبعد أن تفرغ من الاستماع باهتمام تعود لتسألني:

- وماذا عنك يا ابنتي هل لديك أي نشاطات من هذا النوع..؟

فأقسم لها بأنني افتقد لمثل هذه الإمكانيات..، وقلبي يقطر دماً.. فثورةٌ ما في داخلي بدأت تتخذ خطواتها الأولى.. وأمي لا تزال تخشى أن تورثني الثقافة الفشل والضياع.. وهي تحاول جاهدة أن تحميني منها.. .

لكنني ما زلت أقرأ.. فأعذرني يا أمي.. رغم انك طالما كرهتي منظر الكتب والصحف والحاسوب.. لا رغبةً مني في معاندتك ولكن.. أماه أنا اطمح بمستقبل أسرج له فكري.. وانثر فيه أرائي وكلماتي.. لا مستقبل يتطلب مني الجلوس في انتظاره على عتبة الدار عسى أن يحملني معه على صهوة حصانه..!

Digitized by Google

منذ أن بدأ فتيل الثورات بالاشتعال غابت عني صديقتي ماري فرانسوا..، صديقتي.. اشتقت لأحاديثنا.. وتشاطرنا الذكريات.. والأفكار.. والدموع.. والضحكات.. اشتقت لمعانقة طيفك.. والتحديق الى ضوئك.. ومحاورة كبريائك.. . ولا أطيق التفكير انك ربما في جوف الموت الآن.. أو ربما أنت في طريقك إليه.. لا.. لا..

أتمنى لو انك لم تموتي في ذلك اليوم.. أتمنى لو أن مصيرك سيكون مختلفاً عما اعرفه.. لستُ الوحيدة التي تتمنى ذلك يا ماري.. كل معجبيك ومحبيك يتمنون ذلك..، لكن لو لم تكوني كما نعرفك هل سنحبك كما نحبك الآن.. لا اعلم .. ولا اعلم لم ظهرتِ في حياتي.. ولمَ تغيبين في هذا الوقت.. هل كانت رؤاكِ مجرد إشارة لما يحدث الآن..؟

لا.. ثمة قوة في داخلي ترفض الاستكانة لغيابك عني على انه ابدي.. وترفض الاستسلام إلى كونك رحلتي دون وداع وتركتني دون نهاية..

لا.. هذه ليست شيمك.. . حتماً أنت ستعودين.. هكذا اخبرني حدسي.. لكنه عجز عن تحديد فترة الانتظار التي علي أن أتحملها..، رباه لمَ يكون الانتظار هو الفترة الأطول في كل محطات عمري..

أعادني كرنفال الثورة في ساحة التحرير في مصر إلى "سستم" حياتي السابق.. وما بين التعاطي مع الحياة اليومية ومتابعة الأخبار بكل الوسائل المتاحة.. عادت نشاطاتي واتصالاتي على كل الأصعدة.. إلى طور التفعيل..

Digitized by Google

لولا أنني أبصرتُ صديقتي ماري فرانسوا في عيون الشباب الهاتفين للتحرر.. فهربت من ذكراها إلى الموسيقى والأغنيات.. فأحسست وكأن كل أغنية كانت لها أو منها أو عنها.. آثرت الهروب إلى متابعة الأفلام.. فبدا كأن كل فلم يحمل لي أشارة منها.. أرهقني تلقيها..

Just a little more time was all we needed.. Just a little time for me to see the light that life can give you.. oh, how we get such a free.. so now I 'll.. take my heart back.. leave your pictures on the floor.. steal back my memories.. I can't take it anymore.. I 've cried my eyes out.. & now I face the years.. the way you loved me.. vanished all the tears

هناك توقفت.. أدركت انه يستحيل علي الهروب أكثر.. وعليّ أن التزم قدري في الانتظار.. وقبل أن الحظ شعاع الصباح الأبيض.. لحظت الغبار الذي يعلو كل شيء حولي.. وربما حتى وجهي.. غرفتي كلها مغبرة.. أذن أنا بحاجة لحملة تنظيف لإزالة هذا المسحوق الناعم الذي يلون كل ما في حياتي بلون باهت.. ليعود لها بريقها السابق..

حملة التنظيف التي أسفرت عن إنعاش أجوائي بروائح المنظفات والمعطرات.. أثارت لدي الحساسية التنفسية القديمة.. حاولت أن أتجاوزها بشراب البابونج.. لكن نوبات السعال اشتدت واضطرتني لتناول جرعة من موسع القصبات ونصف حبة من

Digitized by Google

مضادات الهستامين.. وجلست في غرفتي لأستريح فقد أتعبني السعال.. والضيق يكتم على صدري أنفاسه..

قبل أن استلقي على سريري.. رتبت الوسادة لتكون عالية وكبيرة مما يخفف من حالة التهيج والضيق التي تملأ جوفي بحكة غريبة..

استلقيت على السرير.. لكن النوم لم يتسلل إليهما.. تيسر لي سحب أنفاسي بعد ان خفّت وطأة الضيق، أما السعال.. فقد ظل مشتداً.. لا احسب أنني سأتمكن من النوم هذه الليلة.. ويبدو أنها ستكون طويلة..

اتجهت أنظاري صوب النافذة.. لكنني تراجعت عن فكرة فتح الشباك.. فلا يزال الجو في الخارج متربأً.. كما قد يزعج الجيران صوت سعالي الشديد..

من الغريب أن أهلي ما عادوا يبالون كالسابق حين أكون في مثل هذا الوضع الصحي المتردي.. كأنهم تعبوا أو ملوا أو ربما لديهم أسبابهم الخاصة.. بصراحة لست مهتمة لتجاهلهم صوتي لأنه يزيح عن كاهلي الإحساس بذنب أشغالهم بصحتي بين الحين والحين..

"كتبتلك جوّات عيوني دمعه وآه..
جرحة صوتك عم اسمعها وما انساه..
حتى يطلع فجر جديد وأستناه..
مفارقني وغيابك عني طلوع الروح ..
لما بنادي وما بتسمعني تزيد جروح..
يارتني نسمة وعبلادك فيها تروح "

- طيب.. لِمَ تسعلين..؟هل أنت مريضة..؟

Digitized by Google

سألتني.. فأسرعت لأحتضنها، وبدل أن أجيبها على سؤالها رحت اردد: أين كنتِ كولونيل اشتقت لكِ كثيراً.. أين كنتِ..؟

أمسكت بذقني ورفعته قليلاً.. حدقت في عيني وأجابتني: كان لدي واجبات لأوديها.. يا سخيةَ الدموع، لم تجيبيني.. ما سبب سعالك..؟.. اقصد..

- اعلم سبب سؤالكِ.. رغم شدته هذا ليسَ سُلاً ولا التهاباً بالرئة.. انه مجردُ تحسسٍ موسمي..

- أكنت تعلمين عن اصابتي بالمرض ولم تخبريني.. لماذا..؟! ما الذي تخفيته عني أيضاً..؟

- لأنه لم تكن هناك فائدةٌ من اخبارك.. حين التقيتك كنت مصابة به بالفعل..، أما ما حدث في الجمعية الوطنية فلا أحسبك كنت ستغيرين موقفك حتى لو اخبرتك بما ستواجهين من العواقب..

- هذا مؤكد..

- إذن..، ما حصل معكِ كان سيحصل.. فهو في كل الأحوال محصلةً لمجمل ترسبات الماضي.. وحتى لو أنني أخبرتك بالأمر.. لما تمكنتُ من تغيير شيء ولا كنت سأحميكِ من غضب والدك ومحاولته قتلكِ.. كولونيل.. كنتٌ هناك.. ذلك اليوم.. وشهدتُ ما حدث معكِ في مكتبه..

انتفضت من مجلسها.. ووقفت بعيداًعني.. وقالت: لكن أليست لقاءاتنا مقتصرةً على الأحلام فحسب.. فكيف تمكنت من..؟! ثم أين كنتِ..؟! لم أركِ..

- كنتُ هناك مثلما أنت ألان هنا في غرفتي.. لكنني على ما يبدو ولحسن الحظ ربما لم أكن مرئية..

Digitized by Google

- حسناً.. وما الذي ترغبين قوله اذن عن ما رأيته..؟
- لا يسعني القول سوى ان.. ما قام به والدك.. كان.. كان.. في منتهى القسوة..
اتجهت صوبَ النافذة وراحت تنظرُ عبرَ زجاجها وهو يعكسُ صورتها في الظلام.. أسندت رأسها إلى الجدار.. فقلتُ لها:
- اعذريني.. لم اقصد الإساءة..
- لا.. لا تأسفي.. ليس ذنبك..، لكنك ذكرتني بJussiven..
- أختك الصغرى..؟
- نعم.. فقد سبقتك لهذا الوصف..
- أتقصدين انك تعرضت لموقف مماثل سابقاً..؟
- لا.. كانت حادثةٌ مختلفة.. افترض انك تعلمين بشأنها أيضاً..
قطبتُ حاجباي وحاولت ان أتذكر ثم هززتُ رأسي مشيرةً بالنفي..
أخذت شهيقاً عميقاً.. ثم زفيراً بطيئاً.. كأنها تتردد في البوح بما تفكر فيه.. أستغرقها الأمر لحظات لتستكمل حديثها:
"لم أكن أتجاوز العشرين من عمري.. حينما كدت أن أتورط في مبارزة مع Count Jermyn لولا أن تدخلت جلالة الملكة أنطوانيت في منعها.. وفرضت عليّ بسببها الإقامة الجبرية لمدة شهر..
أمضيتُ أسبوعين منها.. ثم استدعي والدي لمهمة قرب الحدود.. فارتأيتُ أنها فرصة قد توفرت لي لأتفقد أملاك Jarjeyes في Aras وأتعرف على حال الناس هناك..
كانت السفرة حافلةً بالمصادفات والأحداث التي أخرت من موعد عودتي.. وجدتُ والدي وقد سبقني بالعودة.. قصدتُ مكتبه

Digitized by Google

لأسلم عليه واعلمه بوصولي وأحدثه عن ما رأيته هناك.. رغم علمي انه سيكون غاضباً بسبب الحماقة التي ارتكبتها بشأن الاقامة الجبرية..

فور دخولي للمكتب.. صادفتني عيناه فأدركت أنني في مأزق كبير.. وان غضبه اشد مما كنت أتوقع.. توجه نحوي بعصبية وصفعني صارخاً:

- أيها الأحمق.. هل تعلم ما الذي سيحدث لو علم البلاط.. بأمر عصيانك لأمر جلالتها..؟

- أسف سيدي.. لكنك تعلم أن الأمر برمته كان ظلماً..

- ماذا..؟!.. هل وصلت بك الوقاحة لتعترض على أمر جلالتها..؟!

- كلا..، لكنني أحاول إيضاح الأسباب التي دعتني إلى..

- اخرس.. لن اسمح لعاصٍ وقحٍ مثلك أن يلوث شرف العائلة وإخلاصها للبلاط.. سأبلغ عنك بنفسي ولن أتشفع لك أبداً ..

- وأنا مستعد.. لتحمل عاقبة تصرفي..

- حسناً إذن.. سأتولى أمر تأديبك بنفسي..

في تلك اللحظات.. كنت لا أزال احتفظ بنشوة التمرد.. فخطوتُ نحو الجدار بثقة.. ورفعت يديَّ بفخر.. وتلقيت الجلدات الأولى بهدوء.. "

"كم كنتِ شجاعة..!"

"بل حاولتُ أن أكونَ شجاعةً.. دفعتُ نفسي لتذكر الصبيَ الذي اردتُ أن أثأر له من Count Jermyn.. والطفلَ الذي انقذه تواجدنا في Aras.. حاولتُ أن أكابرَ على حالة الإذلال التي أقف

Digitized by Google

فيها.. لكن والدي كان مصراً على تلقيني درساً قاسياً يصل صداه إلى فرساي فيطفئ به غضب البلاط..

ضربات سوطه كانت تزدادُ قوةً.. وجسدي يفقدُ قدرته على التحمل.. ويستصرخ من الألم.. بدا الأمر سرمدياً ولا نهاية له.. حتى طرق احدهم الباب.. عندها توقف والدي وسمح للطارق بالدخول.. كانت أختي Jussiven.. استوقفها حالي فانهارت بالبكاء.. وأسرعت نحو غرفتها وهو تردد:

"أنتَ بمنتهى القسوة..!"

أثارت كلماتها غضب والدي عليها.. وكاد أن يلحق بها.. لولا إنني اعترضتُ طريقه:

- سيدي أرجوك.. أعفو عنها.. هي لا تزال فتاة صغيرة وغير مدركة للأمور..

- وما الذي نالني منك أنتَ.. أيها العاقل المدرك.. سوى ارتكاب الحماقات المتلاحقة..؟

- اعتذر سيدي.. لأنني تسببتُ لك بالمتاعب..

- André.. خذ سيدك فرانسوا إلى غرفته.. "

صوتها كان يرتعش.. كفها اليمنى ممسكةٌ بذراعها اليسرى وتشد عليها بقوة.. اقتربت كثيراً من النافذة وكأنها تحاول النفوذ إلى تلك الظلمة الحالكة.. راغبةً الهروب مما يؤلم تذكره.. ويصعب نسيانه.. كانت لا تزال تتحاشى النظر إليّ بشكل مباشر.. ومع هذا تجرأتُ لأخبرها.. أنني "احسدها"..

متفاجئةً التفتت نحوي.. تتفرس ملامح وجهي.. متحيرةً إن كنت اضمر السخرية في كلماتي - تحسدينني..! على ماذا..؟!

Digitized by Google

بدا سؤالها لي كصرخةٍ تود أن تطلقتها في غفلة من الكبرياء الذي يطبق شفتيها.. ويزمّ على جرحها.. يتشبث بدموعها ويمنعهما من النزول..

منحني الموقف لحظاتٍ لأسبح في سماوات عينيها.. غيوم حزنها الكثيفة تخبئ خلفهما مرحاً صبيانياً وروحاً تحتفظ بابتسامتها حتى في اشد اللحظات عصفاً.. لا تزال تتفرس ملامحي تنتظر أن أجيب سؤالها الذي لم تطرحه..

- نعم كولونيل يبدو ما أقوله لكِ غريباً..، ولكنني حقاً أحسدك.. لان من لا يجرؤ على استذكار ما المّ به من حوادث وكروب لا بد له من ان يغبط من تملّكه صفاء النفس وتصالح الذات حتى بات يبوح بما يؤلم دون ان يكون للخزي سلطان عليه..

ولان من ترامت السياط في أعماقه بعيداً واتسعت رقعة آلمه لتشتمل أبعاداً يكاد يجهلها لولا ما يكلؤه في الحنايا.. حتماً يتمنى لو أن جراحه ظاهرة للعيان بحدودها وعمقها وموقعها..

ولان من تقيده سلاسل الخيبة وتثقل همته وتسلبه ما استبقاه الخوف من إرادة حتماً يحسد من يملك فرصةً ليمسك ما يصنع به لنفسه قدراً وان كان سيفاً.. فأمثالي يتمنون أن يجدوا لأنفسهم فرصةً.. أي فرصةٍ ليدخلوا عبرها مضمار الحياة..

- رباه..، من أي عذابِ تعانين يا صديقتي..؟! ولماذا تكتميه عني..؟

- لأني لست بطلةً مثلكِ.. ولا أريد تضييع وقتك بالاستماع لقصة لا تستحق أن تروى..

- من أوهمك بأني بطلة..؟

Digitized by Google

في هذه الأثناء لمعت برأسي فكرة.. وأسرعت إلى تطبيقها.. سارعت إلى مكتبتي الصغيرة لاستخرج منها صندوقاً كارتونياً غلفته بغلاف خاص .. أخرجت المجلة المصورة - التي طبعتها بطابعتي الشخصية لأنها غير متوفرة لدينا في الأسواق- ووضعتها بين يدي رفيقتي.. كي أتيح لها فرصة ان ترى نفسها بعيوننا.. فأجيبها على سؤالها بشكلٍ عملي..

وبعد أن تابعت ما أقوم به بصبر.. وتصفحت تلك الصفحات باهتمام مرتبك.. سألتني:

- ما هذه..؟

- حكايتك كما اعرفها..، هذه أنت.. وهذه هي السيدة أنطوانيت.. هذا الكونت فيرسن.. وهذا هو أندريه.. وهذا..

- كتابٌ مصورٌ! هل انا مجرد رسوم..؟!

- لا.. لست مجرد رسوم..

- بلى.. مجرد رسم..، ما أغربك يا طيب.. كل هذا الاهتمام.. كل هذا التعلق.. وأنا بالنسبة لك مجرد..!

- لا.. لست كذلك..

- بلى.. أنا كذلك..، طيب احمد.. انظري لي.. واجهيني من أنا بالنسبة لك..؟ ولماذا اشتبكت أقدارنا..؟ ما الذي تعرفينه عني..؟ أرجوك اخبريني..

- ليس لدي ما أقوله..

- لكنك قطعت لي وعداً..

- أرجوك أعفيني..

- حسناً..، لربما لستُ بحاجة لسماع نهايتي.. لربما أنا هنا لأسمعك.. واسمع حكايتكِ.. حديثيني عن نفسك..

Digitized by Google

- حكايتي..؟!
- هل ستبخلين علي بها أيضاً..؟
- لا.. لكنني لن أكون مسؤولةً عن كونها خالية من المتعة..
- لا بأس.. أني استمع..
- ولدت في أوائل الثمانينات من القرن العشرين.. كان العراق- بلدي- يخوض حرباً طويلة مع إحدى دول الجوار.. أبي كان يسكن جبهة القتال كغالبية الرجال في العراق.. في كل إجازة يعود بها إلى البيت يتمنى أن يجد خبراً يسر خاطره ويخفف عنه.. وذات مرة وجد الخبر بانتظاره..

كنتُ ابنتهم البكر.. أسماني أبي (طيب) ليكون اسمه كشاعره المفضل (أبا الطيب المتنبي).. هكذا بدأت حياتي تنحى منحى تلبية الرغبات..

رغبات أبي كانت محور حياتي.. وأفكاره الفلك الذي أدور فيه دون توقف.. بل المسرح الذي قضيتُ طفولتي فيه واقفة استعرض مواهبي وقدراتي.. وانشد ما أحفظه مما أشار عليّ به.. وعيون الجميع مسلطةٌ عليَّ..

لم يكن مسموحا لي أن ارتجل أو أن أتصرف بعفوية.. فالعفوية محفوفة بالأخطاء.. والأخطاء من شيم الصغار.. وأنا كنت كبيرة.. منذ صغري كنت كبيرة..

ولان أفكار أبي كانت متأرجحة بين الفكر اليساري الذي تبعه في شبابه.. والفكر المحافظ الذي ينتمي إليه عائلياً واجتماعياً.. أنعكس الأمر على معاملته لي.. فما بين أن يدفعني نحو التقدم وما بين أن يضع العصي في عجلات تقدمي..

Digitized by Google

أما أمي فقد تختلف عنه لكنها لا تختلف معه.. لي أخ يصغرني بعام واحد.. كالتوأم كنا.. ثم ابتعدنا عن بعضنا بمرور الوقت حتى بتنا اليوم غرباء الروح.. أشقاء الجسد..

كنتُ طفلةً معجزة.. في سن الثانية.. تضاهي شهرزاد بخصب خيالها.. وطول الحكايات التي تسردها.. لذلك بذل أبي الكثير من جهده ووقته في الإشراف على هواياتي ونشاطاتي في محاولةٍ لحصرها خشيةَ أن تلهيني عن تحقيق حلمه بأن أكون طبيبة.. لا طبيبة فحسب بل طبيبةً ناجحةً تضفي بريق المجد على اسم عائلتها.. إلا انه لم يقدر لي أن أحقق حلمه.. رغم كل الجهد والاجتهاد الذي بذلته.. فدخلت كلية أخرى عوضاً عن كلية الطب..

الكلية التي تخصصت بها لم تكن خياراً سيئاً لكنها مخيبةً للأمل بالنسبة لأبي الذي رغب بالمزيد.. ولا زلت أسعى في استرضائه.. دون أن اعلم إلى أين اتجه ومتى سأصل لنقطة انتقل فيها نحو تحقيق مبتغاي.. واتخاذ خياراتي الشخصية..

- لهذا إذن تهتمين لأمري..؟

- اهتم لأمرك.. لأنك ممن اثبتن وبجدارة أن البطولة ليست حكراً على الرجال..

- يبدو أنكم تبالغون في تقديري..

- أو انك أنت التي تجحفين نفسك حقها.. فأنت أسطورة للمرأة التي تنحني برقتها للنسيم.. وتتصدى بعنفوانها للذل.. وتأبى أن تكون إلا حرة..

- حرة..؟! آوه.. كيف أكون حرة وأنا محتجزةٌ بزي ومنصب وقصور رخامية باردة لا تضاهي بقسوتها إلا قلوب ساكنيها..؟

Digitized by Google

كيف أكون حرةً وأنا مضطرة لأُصنف ضمنَ نظامٍ طبقي بغيضٍ ومجتمعٍ منخورٍ يرتع في الفساد..؟ كيف أكون حرة وأنا التي اختارت أن تخسر أنوثتها.. وتضيع حبها وتمنح حياتها ثمناً لرغبات والدها..؟

- كولونيل.. أتذكرين تلك الليلة التي سألتني فيها عن حال المرأة وان كان قد تغير بعد المائتي عام..؟

- نعم..

- لم أجبك يومها..، لأنني تحيرت.. فالمرأة اليوم يمكنها أن تترشح إلى أعلى المناصب في الدولة.. يمكنها أن تدخل أيَّ مجالٍ.. وان تشارك في أيَّ محفلٍ.. وهي تملك الكثير من الحقوق تقابلها واجباتٌ مضاعفة.. ومع هذا هي لم تزل خاضعة لتصنيف ضيق لا يمنحها الكثير من الخيارات الشخصية..

ورغم ما تكفله لها معظم الشرائع والدساتير من مساواة إلا إنها لا تحميها من التمييز و الطعن والتنكيل والتشويه.. ولا تمكنها من اخذ الحيف لنفسها..

كولونيل..، بعدكم بمائتي عام.. تغيرت صور النساء وحياتهن.. من الخارج.. أما من الداخل.. من الصميم.. لازال الوضع على حاله..، فإن كنتِ أنثى تنوء بصلادة زيّ المحارب.. فأنا محاربةٌ ترزح تحت أغلال الأنوثة..

أنا محاربةٌ تختبئ خلف الستار.. ولأحمي صورتي من أن تلوثها الألسن.. واحمي اسمي من أن تثلمه الأقاويل في مجتمعٍ لا يمكنه أن يرى النساء إلا بمنظار الدونية.. وتحت عدسة مكبرة للعيوب؛ مجتمعٍ لا يمكنه أن يفكر بالمرأة دون أن تساوره مختلف الظنون والشكوك..

Digitized by Google

تبرأتُ من كلماتي وأضعتُ قلمي.. وعمدتُ إلى حرق أوراقي أكثر من مرة.. لكنني فشلت في الهروب من قدري.. فلجأت إلى التنكر واعتدت أن أكون كاتبةً (تحت العباءة)..

- وهل قررتِ ان تظلّي هكذا الى الابد..

- لم اقرر.. ومن يدري.. ربما سأبدأ مشواري في الكتابة عنك..

- انا..؟! تكتبين عني..؟!

- إن سمحتِ لي طبعاً..؟

- لا بأس.. .ولكن ماذا ستكتبين عني..؟

- انك.. عنوان ثورتي..

(2)

ما أصعبَ إدراك المرءِ لنهايته.. وما أجرأ من يكتبها..، أرى الغد يقتربُ.. وخيوط فجره ترسم لي صورةَ الوداع.. صفحةً أخيرةً في مذكراتي.. لو أني فكرت في السابق بكتابتها..

إحساسٌ غريبٌ غمرني حين استيقظتُ هذا الصباح.. ابحثُ عن طيب.. في الزوايا.. والمرايا.. في حدقتيّ.. وصوتي..، أن لا أراها لا يعني بالضرورة عدم وجودها في الأثير.. تراقبني.. تسجل كل شيء فقد وعدتني ان تكتب عني..

في الحقيقة.. كان من الأفضل لو أنني فعلت ذلك بنفسي.. فقد كنت الحارس الملكي الموكل بحماية جلالة الملكة أنطوانيت منذ أن وطأت قدمها ارض فرنسا..

Digitized by Google

حين التقيتها أولَ مرةٍ.. أثارت غيظي بما بدا عليها من الدهشة والحبور.. إذ افتقدتهما في حياتي، لكن بمرور الوقت تبدد غيظي وبدلاً عنه تنامى إشفاقي عليها..

وصلت إلى فرساي أميرةً وولياً للعهد.. منحته من عفويتها وجاذبيتها بريقاً ولكن منصبها كان يحتاج إلى الكثير من المؤهلات التي تفتقدها عوضاً عن ثقل المسؤوليات التي ألقيت على كاهلها.. والمكائد والمغريات التي واجهتها ولم تفلح في تخطيها ..

هو ربما التقاء سوء التقدير بسوء الطالع قد جعل منها ما هي عليه اليوم.. ودفع الشعب الفرنسي الذي استقبلها بالمحبة والورود عاقدا عليها آماله قبل 17 عاماً يبرز اليوم في الساحات مطالبا بحقوقه صاباً جمّ غضبه عليها.. انه الشعب ذاته الذي أحب حيويتها وجمالها الملكي.. يحملها الان أوزار ما ارتكب كلَّ البلاطِ من خطايا..

مولاتي أنطوانيت..

إن كنت في سنيّ خدمتي لك في الحرس الملكي.. لم استطع حمايتك من مؤامرات قاطني فرساي ودخان دسائسهم الذي لوث اسمكِ وطيبتكِ.. وأعمى بصيرتكِ.. وحال بينك وبين رعيتكِ.. فها أنا اليوم أتخلى عن كل الألقاب والامتيازات التي منحتني إياها راغبة أن انتقل إلى الضفة الأخرى.. لاقف مع المطالبين بالحرية والاخوة والعدالة.. عسى ان تتنبهي لأولئك الذين يموتون من قسوة الحياة وشظف العيش.. عسى أن تسمعي صوت الجياع الذين يملأون الطرقات فيما تزدان موائد النبلاء بالوجبات الفاخرة..

Digitized by Google

فالشعب الذي صمت طويلاً لابد له أن يقول كلمته.. فيما الزمان يدور بعجلته.. التغيير قادم مولاتي.. وداعاً..

لقد اتخذت قراري ولا يمكنني أن أتراجع الآن.. قلبي يخفق كما لو انه طائرٌ يصفق بجناحيه.. من الإثارة ربما.. أو ربما من الخوف.. . لا.. قلبي لا يعرف الخوف.. ولم يكن يتردد حتى في خوضِ مغامرةِ.. أو يروّع لمصير ينتظره..

لا.. لست ممن ينال منهم الخوف.. غير أن التفكير في الأمر يثير الحرارة في جوفي.. والرغبة في نفسي بوداعٍ حميميّ وجياشٍ يعوضني عن حياةٍ عشتها دون أن املك الوقت والوضع المناسب لاستمتع بما حولي.. والآن لم يعد بإمكاني ان أعود بالزمن إلى الوراء.. فالغد يقترب.

طيب.. من الأفضل ان تكوني هنا لسماع اعترافاتي.. ربما سيسعدك أكثر أن تدققي في وصف مظاهر الرفاهية والثراء التي أعيش فيها..، صدقيني لم آبه لها يوماً.. لم اكرهها.. ولم أحبها أيضاً.. ولدت بينها وقد آلفتها.. مثلما آلفت.. أفراد عائلتي..، الخدم.. ووجوه أجدادي في اللوحات المعلقة إلى جانب أسلحتهم المفضلة..

قبل اليوم لم يكن شيئاً مما حولي ليثير انتباهي.. كما في هذا الصباح.. منذ استيقظتُ وأنا اشعر بحساسية شديدة في كل ما يحدث حولي.. المرآة كانت تنظر لي بحزن.. قميصي عانقني بشدة قبل أن اخلعه وارتدي بذلتي العسكرية.. القهوة علق مذاقها على شفاهي..

Digitized by Google

أما الصغير (Jain) الذي شهدت ولادته.. أخذته بين ذراعي.. قبلته ومنحته اسماً طالما ادخرته دون أمل.. وها هو الأمل يولد بين غفلةٍ ومأساة.. في مشهد سريالي يناظر ما أنا مقبلةٌ عليه..

امتزج بكاء الوليد وبكاء مربيتي.. المفجوعة بوفاةِ Sandra .. كادت دموعها ان ترغمني على الاعتراف لها بما انا راغبة فيه ومتوجهة نحوه.. تمنيتُ لو كان بإمكاني ان أوصيها..

Nana..، لا تبكي عليّ ان جاءوكِ بخبري.. بل صليّ للرب عسى ان يجمعني في النعيم بوالدتي..، أعتني بصغيري Jain.. امنحيه من فيض حنانك.. ولا تقسي عليه.. ولا تسمحي له بالتعرف إلى أحفاد Jarjeyes.. أخشى ان يكسروا قلبه..

لا.. لا يمكن ان أقسو على مربيتي الى الحد الذي اخبرها بما اضمر.. سأوصي André ان يفعل.. ولكن متى وكيف سأخبره أنني سأرحل..؟!

طيب..، أشيري عليّ.. فالموقف أصعب مما تخيلته.. André هو صديقي الوحيد الذي يجيد محاورتي.. والغور إلى أعماقي.. وتحمل غضبي..

لا أخفيك أنني كثيرة الغضب.. أشابه بذلك والدي..، بالمناسبة أنصحكِ ان تمنحي متن الكتاب الذي ستكتبيه عني لوالدي..! لأنني صنيعته.. وانعكاس لروحه.. ولا اعلم إن كان عليّ أن اعتز بذلك أو اخجل منه..

أنا ابنة والدي.. اعزُّ بناته وأكثرهم شبها به وإزعاجاً له.. ولا اعلم إن كان علي أن أكون ممتنة له.. لأنه أنشأني منشأ الرجال وأسس فيّ رغبة المساواة بهم.. أم أن عليّ أن اغضب منه لما

Digitized by Google

عرضني له من المخاطر والصعاب غير آبهٍ سوى لمرضاةِ البلاط..؟!

هل عليّ أن اذكر حنوه وأدمعه التي يسكبها عندي حين أكون طريحة الفراش.. أم أن علي أن اذكر لسعات سياطه وشدة قبضته حين يغضب..، هل عليّ ان أصوره مترنحاً يداعب خادمة المائدة أم جنرالاً تنحني له الهامات..؟!

طيب..، والدي هو أساس ما انا عليه اليوم فهل القي باللوم عليه في إدماني على النبيذ واشمئزازي من أنوثتي.. أم أعزو له ما حصلت عليه من المناصب والألقاب والأوسمة..؟

"والدي العزيز..

ليتك تعرف كم من غدٍ كنت انتظر.. احلم فيه بإسعادك.. حتى أدركت مع مرور الأيام أن السعي لنيل رضاك غايةً يستحيل تحقيقها.. لأنها مرتبطةٌ بنيل إعجاب الكثيرين.. من داخل البلاط وخارجه..

لهذا تغير حلمي للغد..

انه حلمٌ مختلفٌ تماماً.. يتضمن رغبتي في التخلص من الظلم والتعسف والتمييز.. رغبتي في كسر قضبان زنزانتي والأغلال التي تحزّ قلبي.. حلمي للغد يتجاوز إرضاءك ويدنو من إغضابك.. على الرغم من ان رغبتي بطاعتكَ تناظر رغبتكَ بولادة صبيٍّ يحمل اسمك..، لكنها مشيئة القدير يا والدي.. أنني لم أولد ذكراً وما ذاك بجرمٍ اقترفته ومع هذا صرفتَ أكثر من ثلاثين عاماً تقاصصني به..

أما جرمي الحقيقي وهو حماقتي ونزقي وخلقي الطوباوي الذي سيأخذني عنك بعيداً.. فلن تجد الوقت لتعنيفي عليه.. كما لن تتمكن

Digitized by Google

من تزويجي للرجل الذي اخترته لي..، فأغفر لي يا والدي.. كنت أتمنى ان انجب لك الوريث الذي ترغب به.. لولا المرض الذي نخر رئتيّ .. إنني احتضر فيما اتبع خطى قلبي المتعب.. "

لا تسأمي من جنوني وثرثرتي.. يا طيب.. أنا أحاول أن استوعب ما يحدث معي.. فمشواري شارف على الانتهاء.. وأرجو انكِ لا زلت معي..

هذا مقر عملي.. ان شيءت ان تتجولي في أروقته فافعلي.. تلك ساحةُ التدريب.. ومن هناك ثكنة الجند.. وهنا مكتبي.. فما رأيك أن نكمل الحديث، هل أخبرتك عن باقي أفراد عائلتي..؟

زوجة والدي Countess Margaret.. هي من وصيفات جلالة الملكة.. وأخواتي كن يلازمن والدتهن حتى تزوجن وما عدت أراهن سوى ما ندر..

أما شقيقتي Anne التي عرفت بشدة شبهها بوالدتي.. في ظاهرها وجوهرها.. فهي هادئةٌ صامتةٌ شفافة.. يخيل للمرء إنها تمثال من الجليد.. شديد الصلابة.. سريعة الذوبان..

حين تزوجت Anne كنتُ في العاشرة.. لم أكن اعرف الكثير عن الأمر.. ومع هذا أدركت أن شقيقتي لم تكن موافقة.. لكنها استسلمت فحسب..

عيناها كانتا تتسعانِ برهبةٍ وهي تنظر نحوي يائسةً.. وكأنها تنتظرُ مني معجزةً.. لم استطع الوقوف إلى جانبها .. حضرتُ قداس زواجها بامتعاضٍ.. ثم هربتُ.. ولم اسلم عليها حين سافرت مع زوجها إلى الحدود الشمالية.. عنفتني Nana على فعلتي تلكَ.. جاهلةً بحقيقةِ مشاعري يومها.. أما شقيقتي فاكتفت بالصمت ولم تعاتبني..

Digitized by Google

أتمنى لو ان بإمكاني أن اشرح لها الموقف الذي اتخذته الآن.. وهي ليست الوحيدة التي انا مدينة لها بتفسير موقفي.. ورغبتي أن أكون مواطنة في بلد حر يتمتع أبناؤه بالإخوة والمساواة والعدالة.. لابد أنهم سيتفهمونني في النهاية.. وخاصةً Count Fersen.. لانه حارب إلى جانب الثوار المطالبين بالاستقلال في العالم الجديد.. ، الوقت يمر بسرعة.. وكأنه سينفذ مني.. في كل لحظة أمضيها وأنا أفكر بالغد الذي يقترب بخطاه المجلجلة..

- المجند André Grandier .. سيدي

- استرح.. أرجو أن تقبل عزائي بوفاة زوجتك Sandra .. لقد كنتُ معها حين توفيت.. وصورتها لازالت عالقةٌ في ذهني.. ولا اعلم كيف يمكن ان يكون المرء قريباً جداً مني - كما كانت هي - ومع هذا اجهل الكثير من التفاصيل حولها..، André.. اخبرني أين تعرفت عليها؟.. كيف التقيت بها؟.. ما الذي أحببته فيها؟.. اخبرني عن تلك الأمور..

- لا يوجد الكثير ليقال سيدي..، صادفتني في الأسواق.. فتاة يتيمة تعاني من المعاملة السيئة من أقاربها الذين تسكن معهم.. كانت في مآزق حاولت أن أقدم لها المساعدة.. وقفت إلى جانبها وانتهى بي الأمر متزوجاً منها..

- المسكينة.. انتشلتها من حياة الشقاء لتلقي بها في البؤس..

- آسف سيدي.. لكن خطئي معها لم يكن مقصوداً.. فقد حاولت إدخالها إلى قلبي.. غير انه كان مقفلاً منذ زمن بعيد..

- حسناً.. حسناً.. هل سمعت يوماً عن رجلٍ اسمه الحسين.. الحسين بن علي..

- لا.. ماذا بشأنه..؟

Digitized by Google

- انه رجلٌ من الجزيرة العربية.. كان يمضي في طريقٍ يدرك انه سينتهي بمقتله ومقتل أبنائه وأصحابه.. وان أهله وأحبته سيتعرضون للأذى.. لكنه لم يتراجع بل استمر بالمسير بثبات.. لأنه كان مؤمناً انه ماض في طريق الحق..

- يبدو انه رجلٌ شجاع..، لكنني لم افهم.. سيدي.. ما الذي يدعوك للحديث عنه..

- لا شيء .. عد إلى موقعك.. وانتظر الأوامر.. .

André Grandier- .. انتظر لحظة..

- نعم سيدي..

- حسناً.. أنت تعلم ان الأوامر ستأتي بين لحظة وأخرى.. وأننا عن قريب سنواجه الموت وقد لا نلتقي مجدداً.. وقد لا نملك فرصة لنعتذر لبعضنا أو نعترف بأخطائنا..

- سيدي François ما بك..؟

- نادني Marie، مثلما كنت تناديني حينما كنا صغار.. قبل أن التحق بالحرس الملكي أتذكر..؟

- نعم.. آنستي Marie

- إذن..، هل يمكنك ان تجد المفتاح لأجلي..؟

- آسف آنستي.. أخشى ان قلوب الخدم لا تليق سكناً للنبلاء..

- André..، هل أنت أحمق؟

- كلنا في الحب نغدو حمقى يا آنستي.. .

- أنت على حق..، لكن هل لنا أن نصلح حماقاتنا..؟

- ان كنتِ لا تزالين تحتفظين بالمفتاح.. فمتى شيءتِ أفتحيه.. ادخليه واسكنيه.. القلب وصاحبه.. طوع يديكِ.. انه ملكك.. وأنا لك.. Marie.. احبكِ.. منذ أول لحظة رأيتك فيها.. لا.. منذ

Digitized by Google

ولدت.. كنت احبكِ.. أحياناً اشعر أنني ولدت لأحبكِ.. أرجوك.. اقبلي بي.. كوني لي.. كوني قدري للأبد..

- أخشى ان الوقت قد حان لأخبرك بالأمر ..؟

- ما الذي تودين اخباري به..؟

- يعتقد Dr.Losen أن المرض لن يمهلني الكثير من الوقت ليقضي عليّ..

- وماذا لو كان Dr.Losen مخطئاً..

- ربما.. لكن (طيب) لا يمكن أن تكون مخطئة..

- ومن هي (طيب)..؟

- قد تستغرب ما سأقوله لك.. وقد لا تصدقني لكنني واثقةٌ مما رأيته.. رأيت في منامي المستقبل.. سافرت إلى القرن والواحد والعشرين.. حيث نكون انت وأنا مجرد حكاية يرويها الناس ولا تحفظها الكتب.. André.. في المستقبل ستتجاوز فرنسا الكثير من الصعاب.. وستصبح باريس عاصمة للنور.. أما في الغد فسأكون أنا والبعض من رجالي قرابيناً للحرية..

- إلى أي حد أنت واثقة من (طيب) وما آرتك أياه..؟

- إلى حدٍ بعيدٍ..

- ولكن ألا يمكننا تغيير هذا المصير.. ألا يمكننا أن نتجنبه أو نهرب منه مثلاً..

- لا..، أنا لن أتخلف عن مصيري.. سأكون حيث يريدني الرب أن أكون.. وأرجو أن تساندني في قراري..

- أنا معكِ.. أينما تمضين..

- André.. أنا خائفة..

Digitized by Google

- لا بأس حبيبتي.. لا بأس أن تكوني خائفة.. لكن تذكري دوماً أنني إلى جانبك.. فلا تخشي شيئاً..

- ضمني.. حبيبي..

"I've been waiting for time.. waiting for you to say you are mine.. can't hide these feelings inside.. let me hold you to night.. I really want you to know all these feelings I have to show.. How mach I've been loving you tell me you'll be mine Gonna love you.. keep on loving you, dear.. I will love you till the end of time.. I'll be with you.. no matter what happens.. I'll be there by your side.. I will hold you.. hold you here in my arms.. I will promise.. I want let you go stay with me make all our dreams came true.. I will give you all I have cause you mean whole world to me.. I will love you with my heart and we'll never part.. "

- سيدي.. التقرير..، أسف سيدي..!

- لا بأس.. Colonel Dagôut.. تفضل..

- لقد وصلت الأوامر وهي تتضمن أمراً بتقدم الحرس الفرنسي.. الفوج الثاني في الساعة الثامنة من صباح يوم 13 من يوليو إلى ساحة توليري لمواجهة المسلحين والقضاء على حركة التمرد والشغب..

- حسناً..، لتتأهب الفرقة.. وليستعدوا للتحرك..

Digitized by Google

- حاضر سيدي..
- Marie.. ما الذي تنوين القيام به..؟
- ستعرف الآن.. هيا لنستعد..
- اعتقد أنكم سبق وعرفتم أن الأوامر قد صدرت بوجوب تحرك الفوج إلى ساحة توليري لاحتواء التحرك المسلح للجماهير والقضاء على الشغب.. بأي شكل ويتضمن ذلك إطلاق النار.. المواطنون الذين نحن في صدد مواجهتهم هم سكان باريس.. قد يكون بينهم أفرادٌ من أهلكم أو أصحابكم.. ومن الطبيعي أنكم لن تطلقوا عليهم النار..
- هذا صحيح.. .
- إياك أن تطلبي منا مواجهتهم..
- بلغي عنا إن شيءتِ.. . لكننا لن نقتلهم.. .
- هدوء.. . اهدأوا رجاءً..، إنما وقوفي الآن بينكم هو لأعلن عن استقالتي كقائد لهذا الفوج..
- ماذا..؟!
- لماذا.. .؟!
- حسناً..، لأنني ما عدت الكولونيل François de Jarjayes.. فأنا منذُ اليوم فصاعداً مدام François André Grandier Marie..، نعم سأكون زوجة Grandier الرجل الذي أحبه وأثق به.. الرجل الذي سأرافقه لما بقي من حياتي..
- آوه..، إذن فقد فزت بقلبها André.. لمَ لم تخبرنا..
- تهانينا André..
- André لما أنت صامت..؟!

Digitized by Google

- أيها الأصحاب..، أشكرُ طيبَ مشاعركم.. لكنني اعتقد أن الوقت ليس مناسباً لمثل هذا الحديث فأمامنا مهمةً..

- اسمح لي يا André..، هل ستنضم معنا في وقوفنا إلى جانب إخواننا المواطنين في ساحة توليري..؟

- نعم.. .

- وماذا عن المدام..؟

- نعم.. هذا مؤكد..

- إذن فأسمحي لي أن أخبرك نيابة عن الفوج.. انكِ لا زلتِ القائدَ بالنسبة لنا..

- شكراً لكم..

(3)

هي.. استيقظت ذلك اليوم.. لبست بذلتها العسكري.. تمنطقت بالأسلحة.. سيفها.. ومسدسها ذو المقبض الفضي المنقوش بالورود.. شربت قهوتها الصباحية.. حملت قبعتها بيدها.. وبينما كانت تتأهب للخروج طرقت بابها إحدى الخادمات..

- تفضل..

- آنستي.. أرجوك.. أنها Sandra .. إنها في حال سيء.. وتطلب مقابلتكِ..

- حسناً.. حسناً.. أنا قادمة..

خرجت من غرفتها وتسلقت السلالم مسرعةً نحو غرفة اندريه.. كان الباب مفتوحاً..

- Nana.. ماذا يحدث..؟

Digitized by Google

- آنستي..، Sandra أنجبت طفلاً جميلاً جداً.. لكنها نزفت كثيراً..

- هل أحضرتم الطبيب..؟

- نعم..، كان الطبيبُ عندها قبل قليلٍ..

- وماذا قال..؟

- إنها تحتضر..، آنستي..

- خذيني إليها رجاءً..

- تفضلي..

لم تحتج سوى لبضعِ خطواتٍ لتجد نفسها أمام ساندرا المرهقة وطفلها الوليد.. للحظة ظنت أنها قد رأت هذا المشهد سابقاً.. هل تراها كانت واعيةً لحظةَ ولادتها بشكل كاف لتشكّل منها ذكرى..، قاطعها صوت ساندرا المبحوح:

- آنستي أعترف لكِ..، أنني كنت أبغضك في الماضي.. فقد كنت صغيرةً.. أرى زوجي يرافقكِ طوالَ الوقتِ.. وصورتك لا تفارقه حتى حينما يكون معي.. كنت أغارُ منكِ.. وأحسدكِ..، لكنني بدأت احبكِ.. ربما منذُ أن أصبحتُ حاملاً..! ربما أودعني André جزءاً من حبه لكِ..، آنستي.. وليدي بين يديك أمانةٌ.. باركيهِ وأمنحيه اسماً.. وعطفاً وحناناً.. لأنه ولدَ مثلكِ ومثلي يتيم الأم..

- لا تقولي هذا الكلام.. يا Sandra ..، تشجعي.. عليكِ ان تعيشي لتربي ابنكِ بنفسكِ..

- هو منذ الآن صار ابنكِ.. إن شرفتهِ بهذه المنزلة.. آنستي.. الوداع..

Digitized by Google

أغمضت ساندرا عينيها.. ورحلت مخلفةً أمانةً يصعب رفضها ويثقل حملها.. كلماتها الأخيرة كانت مؤثرةً جداً في مستمعيها.. وموتها صاعقاً.. ويصعب احتماله..، عادت إلى غرفتها.. لتكتب رسالةً مسهبةً.. ثم عادت مزقتها وكتبت رسالة أخرى لم تحتو سوى بضعة كلمات..

"لأجل محبتك ورأفتك التي أحطت بها ابنةً مثلي.. أنا في غايةِ الامتنانٍ لك.. ولأفراد عائلتي جميعاً.. وأشكركم الشكرَ الجزيل..؟"

تركتها في مغلف على مكتب والدها.. ثم خرجت متجهة إلى مكتبها في الثكنة العسكرية.. حينما وصلت أرسلت في طلب أندريه.. أخبرته أن زوجته أنجبت ولداً جميلاً.. عبرت له عن رغبتها بتسميته (جاين).. منحته إجازةً زمنية دون أن تخبره بوفاة زوجته..

انفردت بنفسها.. حاولت أن تقيم الموقف.. صورة ساندرا لم تغب عن بالها.. معاناتها بين الولادة والاحتضار أثارت في نفسها السؤال.. عن أيهما أكثر إيلاماً..؟، الموت الذي لطالما كانت قريبة منه.. تتذوق آلامه دون أن تشرب الكأس كاملة.. تراقبه عن كثبٍ وهو يسرق الأرواح.. .

أما المخاض.. فهي لن تعرف أبدا كيف يكون..؟ ذاك المزيج المركب من أمل الولادة وألم الموت.. تلك اللحظة التي تشعر بها المرأة أنها تعاني لأجل أمر يستحق.. فهي المسؤولة عن منح الحياة لإنسان أخر.. إنسان جديد.. ولد من ارتعاش قلبين تعانقا في لحظة حب..،

Digitized by Google

"يا الهي.. اغفر لي.. لستُ أعترضُ على قضائك لكن.. كنت أتمنى لو منحتني شرف المحاولة.. المحاولة فحسب.. يا الهي.. أتمنى لو كنت أُماً.. "

تذكرت جاين.. حين حملته إلى صدرها غمرها شعور مختلف لم تشعر به في أي مرة حملت بها طفلاً آخر.. سواءً من أبناء أخواتها أو أولياء العهد الصغار..

رغم انه كان كقطعة لحم صغيرة.. بشرته لا تزال محتقنة اللون لزجة الملمس.. وجفنيه متورمين قليلاً.. إلا أنها شعرت بعيني الصغير الخضراوين تحاورانها.. عيناه كانت مألوفة.. ربما تشبه عينا والده.. نظراته استفزتها لتجهش بالبكاء..

التفكير بالأمر كان صعباً كما السقوط من منحدرٍ حادٍ.. لكنه كان قد بدا بالحدوث ولا يمكنها أن توقفه الآن.. كل ما يمكنها القيام به هو محاولة السيطرة على المسارات..

عند المساء.. عاد أندريه.. طرق باب مكتبها.. ففكرت أن عليها إخباره.. عن مناماتها.. وعني..، كنت هناك حينها.. حينما استيقظت هي ذلك الصباح.. بينما أنا بقيت نائمة.. أو ربما لم تكن أياً منا نائمة..

كنت هناك بشكل من الأشكال التي رغم جهلي لها بت اعتاد عليها.. غير أنني هذه المرة لم أكن حرة الحركة.. بل كنت ملازمةً لها.. وكأنني سيفها أو الفرس التي ترافقها..، لا.. كأنني كنت إحدى النياشين أو الوردة التي تزين صدرها.. لا بل كنت حتى أقرب منها.. اشعر بكل خفقات قلبها والنبض الذي سرى مسرعاً في عروقها.. اسمع نجواها.. وصوت أندريه يهمس.. "أنثري

Digitized by Google

شعرك حولي.. انثريه.. ومعاً آخر ليل العمر نقضي.. هكذا يصبح موتي مدهشاً.. عانقيني.. قبلّي عيني وامضي.. "

اشعر بأنفاسها اللاهثة.. حين تمر أنامله بين خصلات شعرها.. تمسّ وجنتيها برقةٍ.. تنحدر نحو عنقها.. لتنتهي هناك.. وبينما الشفاه تلتقي لترتشف قبلةً قاطعها الكولونيل داغيت..

كنت اشعر بالحرقة التي ملأت جوفها.. والدموع التي أحرقت عينيها حين أبصرت الدماء تنزف من صدر أندريه.. بعدما تلقى عنها رصاصةً كادت أن تغدر بها.. بجسده تلقاها.. فوقاها الإصابة.. كانت تتطلع إليه وتضم كفه الأيسر إلى صدرها وتشد عليها بقوة.. بينما تمسح وجهه بالكف الأخرى..

- هل كنت تعلمين..؟

- ماذا..؟

- ألهذا كنت خائفة..، نعم.. لا شك.. انك لهذا السبب كنت خائفة.. Marie .. أتسأل ما الذي رأيته تلك الليلة..؟

- قرأتُ قصتنا..

- وهل تعرفين النهاية..

- لا..

- يبدو أنها لا تنتهي ب(عاشا سعيدان إلى الأبد)..

- أرجوك.. أهدأ.. ولا تتحدث.. دعني أعالج جرحك..

- جرحي..! صدك كان جرحي.. بعدك كان ألمي.. أما الآن وأنت بين يدي.. فأنا اسعد رجل محتضر..

- André.. أرجوك.. .

- لابد أنني سأموت.. لان دموعك العزيزة تجريان بغزارة.. آه كم يحزنني أني سأموت دون أن أرى فرنسا في عهدها الجديد..

Digitized by Google

دون أن أرى خطوات ولدي الأولى.. دون أن اسمعه يناديني أبي، لماذا يا ألهي.. لماذا الآن.. سأفارق هذا الملاك..!

- André عدني أننا سنتزوج.. في الغد حين يبزغ الفجر..

- أعدك.. أعدك.. أنني لن اسمح للموت أن يفرق بيننا.. سأظل دوما معك.. كظلك..

- حبيبي..

- سأفتقدك حتى وان كنت سأذهب إلى النعيم.. فما النعيم إن لم تكوني فيه معي..، Marie اشعر بالحياة تغادر جسدي.. ضميني.. قبّلي (Jain)عني..

(احبك جداً.. وجداً.. وجداً.. وارفض من نار حبك أن استقيلا.. وهل يستطيع المتيم بالعشق أن يستقيلا.. وما همّني إن خرجت من الحب حياً.. وما همني إن خرجت قتيلا..)

- André.. لا.. لا.. لاااااااااا.. André..، وعدتني انك لن تفارقني أبدا.. قلت لي .. "لن يكفكف دموعك أحد سواي.. لن يرعى ابتساماتك أحد سواي.. لن يحرس أنفاسك أحد سواي.. " وعدتني.. فكيف تنسى وعدك.. حبيبي.. وتتركني وحيدة.. خذني معك أينما رحلت.. André لا يمكنك أن تفعل بي هذا.. لا يمكنك أن ترحل وتتركني هنا.. André

(4)

يقالُ أن أغلى الدموع هي دموعُ الأبطالِ وان أصدقها هي دموعُ العذارى.. فكيف تُوصف دموع الكولونيل فرانسوا..؟!

Digitized by Google

دموعُها تنهالُ صامتةً دونَ أن تتجرأ أي كفٍ أن تمتدَ لتمسحها.. حزنُها يغرقُها حتى كأنها لا تسمع أياً ممن حولها.. وحتى إن استمعت لكلماتهم ستبدو رغم كل ما بذلوه فيها من جهدٍ مجردُ كلماتٍ..، فقد أنتزع قلبها من صدرها وما من شيء يمنحها العزاءَ.. ورغم أنها محاطةٌ بالصحبةِ والأتباعِ فما من شخص يمكن أن يواسيها..

(عذراً) قالت لهم (اسمحوا لي..).. لم يعفها وجودَهم من الشعورِ بالوحدةِ.. فقد كان أندريه مستحوذاً على عالمِها دون أن تدرك.. هو كان الضوءُ الذي تتبعه والظلُ الذي يتبعها.. ومن دون ضوئه حياتها ظلمة.. وبغير ظلٍ يصيرُ المرءُ خيالاً.. خيالاً مجرداً..

"حبيبي.. شايفك وأنت بعيد.. وأنا في طريق السهد وحيد.. وكل خطوة في بعدك ليل وشوق وذكرى وجرح جديد..، حبيبي شايفك.. .بروحي.. بقلبي.. بحبي شايفك.. شايف سلامك.. شايف كلامك.. ضحكة شفايفك.. شايفك وليل الفراق.. ع البعد فارد جناحه.. على جريح مشتاق.. يعرف نهاية جراحه.. في يوم في شهر في سنة.. تهدى الجراح ونام.. وعمر جرحي أنا.. أطول من الأيام.. وداع يا دنيا إلهنا.. وداع يا حب يا أحلام.. دا عمر جرحي أنا.. أطول من الأيام.. "

"طيب..، ليتك تشهدين الآن.. قصتي توشكُ على الانتهاءِ.. كم غريبٌ انكِ أخبرتني النهايةَ دونَ أن تفسدي عليَّ مفاجأةِ الأقدار.. أترُاكِ كنت تعلمين حقاً بما سيحدث وأحجمتِ عن إخباري..؟ أم انه كان خطأ غيرَ مقصودٍ منكِ..؟ أو انكِ لمحتِ لي وأنا التي لم تفهم ما أشرت به..؟

Digitized by Google

نعم..، هو ربما كان خطأي.. كنت متمحورةٌ حول همي.. ولا أفكر إلا بنفسي وكيف سأفارق الحياة وفيها من أحب..، André.. حسبتُ الموتَ صعباً لأنه كان سيحرمني منكَ.. حبيبي.. أنا لم اعتد فراقكَ.. ولا يمكنني أن أتصورَ ولو للحظة أن أناديكَ فلا تجبني.. أو إني التفت فلا أراكَ الى جانبي.. كما لو أنكَ كنتَ معي منذُ أولِ لحظةٍ أبصرتُ فيها الحياة..

مع أنني أتذكرُ أولَ مرةٍ التقيتكَ فيها.. كنتَ خجلاً تختبئُ خلفَ جدتكَ.. آه يا Nana.. الم أخبركِ أنَ ألعابي خطرةٌ؟.. خطرةٌ حدَّ الموتِ.. وحفيدُك لا يستحق هذا الموت.. أخبرتك يا Nana أني لا أريد لهذا الطفلِ الباكي أن يلعبَ معي..

هو لم يكن يبكي حقاً.. عيناهُ كانتا لا تزالانِ تحتفظانِ ببقايا دموعٍ.. أغرقت مقلتيهِ.. وقتها كم استفزتني تلك الدموع التي أخشى ذرفها.. كنتُ أخشى أن يتهمني والدي والآخرينَ بأني مجرد فتاةٍ باكيةٍ - فالرجال لا يبكون هكذا علمني والدي -..، لكن André كان صبياً.. رجلاً صغيراً يبكي.. دموعُه لمست كلماتَ والدي المحفورةَ في قلبي فأعادت وضعَ النقاطِ على الحروفِ.. ومحت ما كانَ يجبُ أن يمحى.. وغيرت ما كان لزاماً أن يتغير..

"

الطرقُ التي سلكتها كانت موحشةٌ.. ينتشرُ بينَ زواياها جنودٌ أجانبٌ.. اخترقت مجموعةً منهم بصعوبةٍ.. ووجدت نفسَها واقفةً أمامَ السين.. تستند على جدارٍ ما..

السينُ لا يزال يجري.. ودموعُها لا تزال تجري.. والذكريات.. ترتسم أمامها صوراً متداخلةً.. عن طفولتِهما معاً.. ألعابِهما الصغيرةِ.. كنوزِهما التي دفناها معاً تحت أشجارِ

Digitized by Google

الحديقةِ.. "الخنجرُ السحريُّ.. André هل تذكره؟.. وهل تذكر Elisa دميتيَّ الأولى والوحيدة التي تمكنتُ من اقتنائها..، أهداني إياه صديقٌ وقالَ لي أن والدته صنعتها لأخته المستقبليةِ.. لكن والدتَه توفيت قبلَ أن تنجبَ له تلك الشقيقة..

لم اقبَلها منه أول الأمر رغم إلحاحِهِ عليّ..، لا لأنني لم ارغب بها.. ولكنني كنتُ محرجةٌ من اقتنائها.. ربما صديقي أدركَ الامرَ فتركها متعمداً في الإسطبل في مكانٍ يمكنني ان اجدها فيه..

اقتربتُ منها بحذرٍ.. حملتُها وأنا أقولُ لنفسي.. لا بأس Marie.. لا بأس أن يكون لكِ دميةً.. لا بأس أن تمنحيها اسماً.. لا بأس أن تحتضنيها.. طالما أن لا احداً سيراكِ.. لا بأس أن يكون لكما هنا مخبأً لتلعبان فيهِ ككلِ الفتياتِ الصغيراتِ.. لا بأس أن تخبريها بما لا يمكنكِ أن تخبري به الآخرينَ.. تلك الأسرارَ الصغيرةَ.. والرغباتَ المهملةَ.. والأشياءَ السخيفةَ التي تثيرُ أهتمامكِ..

ذاتَ يومٍ.. وبينما كنتُ أتسللُ لألتقيها.. وبحذرٍ ارصفُ خطايَ نحو الإسطبلِ.. أضع Elisa بين ذراعيَّ واخبرها عن حاجتي لرؤيةِ والدتي لأعتذر لها - عن تسببي بموتها- ..، عندها تدخل والدي - ولا اعلم أن كان قد تبعني ام وجدني بمحض الصدفةِ - تسمّرتُ في مكاني..

اقتربَ مني بهدوءٍ وسألني عن من اخبرني بذلك؟ فتجمدت أوصالي وأطبقَ الصمتُ على فمي.. اقترب مني أكثر.. انتشل Elisa من بين يدي وقال:

- حسناً.. دعنا من هذا الأمر..، واخبرني من أين حصلت على هذه الدميةِ الرخيصةِ ..؟

Digitized by Google

كتمتُ ابتسامتي في أعماقي وأنا أفكرُ.. هل يعتقد حقاً أنني سأشي بصديقي؟..، لا.. حتى إن صفعني.. حتى أن طرحني أرضاً.. مهما سيفعل لم أكن سأبوح باسمك André.. لكنكَ دخلتَ الإسطبلَ وأفسدتَ خطتي.. .

آآآآه.. يا لحماقتكِ يا حبيبي.. لماذا رميتَ بنفسكَ في لجةِ عالمي القاسي..؟ بماذا كنتَ تفكرُ حين اعترفتَ لوالدي انكَ أنتَ من زودني بالدميةِ..؟، بماذا كنتَ تفكرُ حينما بارزتَه دفاعاً عني؟..، بماذا كنتَ تفكرُ حين تصديتَ لتلك الرصاصةَ عني؟..، ها اجبني..!

هل حسبتَ أن آلامكَ لا تؤلمني؟.. هل حسبتَ أن العقاب الذي ينالك لا ينال مني.. أم أحسبت انك أنقذتني حين تلقيت الرصاصة عني؟.. لا André.. لا.. لأنني معكَ أصبتُ.. بموتِكَ متُّ..

قالت لي طيب أنني سأموت في الرابع عشر من تموز.. أي في الغد.. لم يبدُ لي الغد بعيدا..؟!

André لستُ قويةً كما يجب لأواجه موتك.. . لستُ شجاعةً مثل أندروفاك.. أو السيدة العذرا.. أو زينب.. . هن واجهن موت أحبتهن بقوةٍ.. نظرنَّ إلى جراحِهم العميقةِ وأجسادهم المطعونةِ الممزقةِ.. فازددنَ بكلِ نظرةٍ نظرنها صبراً وتجلداً.. أما أنا فلا أستطيع.. لا لأني خائفة ولكن.. لان حزني غولٌ نما في أعماقي.. التهمَ جلّ رغباتي.. امتصَ رحيقَ أيامي وخلفني واهنةُ الإرادة..

"مثل النهر ما تغيرنا.. حبنا كبر واحنا كبرنا.. محلاه الحب اللي جمعنا.. مثل الطيور احنا طرنا.. ومثل النجمة والقمر.. كبر حبنا واشتهر.. بعيونك حبيبي تبتدي دروب السفر"

Digitized by Google

André.. يبدو أنني كنتُ احبكَ منذَ البدايةِ.. لكنك كنت متزوجاً وأنا كنتُ.. آآآآه الآن.. ليس للندمِ معنىً.. انه قدري وكان لابدَ أن امضي في تحقيقه.. André شكراً.. لأنك كنت حاضراً في حياتي.. بروحِكَ العذبةِ وابتسامتِكَ الدافئةِ.. شكراً لكَ.. يا رفيقي في الحبِ والشقاءِ..)

استسلمت لنوبةِ سعالٍ اشتدت عليها.. جلست بين الأزقةِ الضيقةِ.. لم تع ما يحدثُ حولها حتى رأته يقترب منها.. " André".. هتفت بلهفةٍ..

- Alaine.. أهذا أنت؟!

حينما انتبهت للأمرِ.. وجدت نفسها تعانقه..، لم تتمالك نفسها.. أجهشت بالبكاء.. راقبها ألاين بقلبٍ مفجوعٍ وروحٍ متماسكةٍ وفكرٍ مشغولٍ حولَ تطورِ الأحداثِ..

- سيدي..، الجميعُ ينتظرُ أوامرك..

صوت ألاين.. كلماته.. نظرته الجادة وهو يؤدي لها التحية بانضباطٍ.. أيقظتها من سكرةِ حزنها.. استجمعت قواها وردت عليه بالمثل..

- حسناً..، دعنا لا نجعلهم ينتظرونَ طويلاً..

الساعة تجاوزت الواحدة.. والاصطدامُ محتدمٌ قربَ الباستيل.. حين وصلت مع جنودها.. . استقبلتها روزالي مستفهمةً عن سببِ العصبةَ التي تغطي عينها اليمنى والدماء المتناثرة على بدلتها العسكرية..

- أطمئني، انه خدشٌ بسيطٌ.. أصيبت الفرس ببضع رصاصات فتركتها على ضفة السين..، ما المشكلة Bernard..؟

- المدافع..، ليس لدينا من يجيد استخدامها..

Digitized by Google

- حسناً اتركوها لنا..

كان حراسُ الباستيلِ يوجّهونَ نيرانَ أسلحتِهم من مدافعٍ وبنادقٍ نحو كل من يقترب إلى الجدران من المواطنين الثائرين.. حتى أربكتهم نيران المدافع التي سيطر عليها جنود الحرس الفرنسي – سابقاً- فأضطر الجنرال (دي لاوني) لعرض الهدنة وطلب وفداً من المواطنينَ المحتشدينَ ليناقش الوضع معهم.. عندها أوقفت ماري فرانسوا إطلاق المدافع.. وبقيت مع جندها على أهبةِ الاستعدادِ لأي طارئ..

حذرةٌ كانت.. تكثرُ من الالتفاتِ نحو برجِ الباستيل.. لاحظت حركة الجنود.. كانوا يعيدون توجيه بنادقهم.. رأت الكولونيل دي لاوني يطل من إحدى النوافذ.. "أتراه يعيد تقييم الموقف قبل أن يجتمع بالوفد.. أم انه يخطط لشيء ما..؟ لا.. لا اعتقد انه يجرؤ على خرق الهدنة.. لكن.. كأن الفوهات مصوبة.. . يا ألاهي .. آآآآآآآآآآه.. " أهتز جسدها تحت وابل الرصاص.. وقبل أن يسقط تلقفها ألاين.. كان واقفاً خلفها وعيناه عليها.. ثم ساعده الآخرون..

حملوها نحو احد الأزقةِ.. أسرعت روزالي نحوها لتسعفها.. لكن الأوان كان قد فات..، قال احدُهم انه سمعها تنادي "أندريه".. قال أخر أنها كان تنادي "لتحيا فرنساي حرة"..، لكنها في الحقيقية لم تقل حتى وداعاً..

حاولت أن تقول شيئاً غير أن كلماتها اختلطت بشهقتها الأخيرة.. فيما كانت تنظر إلى الطيور العائدة إلى أعشاشها.. ، فارقت الحياة وهي محمولة على الأكتاف.. ماتت كما كانت تشتهي.. لو أن بالإمكان للمرء أن يشتهي موته.. مع إن تمني الموت لا يعفي المرء من تجاوزِ المرارَ الذي يخلفه فقدان الحياة-

Digitized by Google

أيَّ حياةٍ - حتى إن كانت بائسةً.. لا تزالُ لذةُ الموتِ تسكنُ صدري.. تخبرني أن الإنسان يظل دوماً غيرَ مستعدٍ للنهايةِ حتى إن علم بها..

عندما يذهب الشهداء إلى النوم.. أصحو
وأحرسهم.. من هواة الرّثاء
وأقول لهم:
تصبحون على وطن،
من سحابٍ ومن شجنٍ،
من سراب وماء
***
أهمس: يا أصدقائي.. اتركوا حائطا واحداً،
لحبال الغسيل،
اتركوا ليلةً للغناء..
اعلّق أسماءكم أين شئتم.. فناموا قليلاً،
وناموا على سلم.. الكرمة الحامضة
لأحرس أحلامكم.. من خناجر حراسكم
وانقلاب الكتاب على الأنبياء
وكونوا نشيد الذي لا نشيد له..
عندما تذهبون إلى النوم هذا المساء
أقول لكم:
((تصبحون على وطنٍ))

استيقظتُ اليوم.. من حلمٍ سكنني في الماضي بصمت.. صار اليوم يستصرخني؛ حلمٍ عمن تحيا تحت عباءتي.. وقد أن الأوان لأميط اللثام عنها.. فقد آن أوان التغيير..

Digitized by Google

التغيير الذي يقتضي ثورةً على الذاتِ كنقطةِ للانطلاقِ.. نحو إحداثِ تغيير حقيقي لإصلاح المجتمع.. فالأنظمة الظالمة المستبدة لا تسقط بالانقلابات والعمليات العسكرية أو بأعمال الشغب.. أنما هي تسقط بسقوط المفاهيم الخاطئة التي أشاعتها واعتمدتها للسيطرة على المجتمع..

تلك هي.. جاءت من البعيد.. لتهديني ثورتها قصة تسكن هذا الكتاب.. صفحاتٍ مضمخةٍ بعطرِ الوردِ وأنفاسِ من رحلوا لنحيا بكرامة.. وسوءاً كان اسمها Marie , June , Elena Oscar, أو Rosa فقد متُّ معها.. وهي تحيا معي.. تناظرنا في ماضينا.. وتشاركنا الأحلام.. والرغبة بالتحرر..

هكذا صحوتُ.. في احدِ الصباحاتِ القاسيةِ البرودةِ.. وقد هبَّ من نسيمِ الثوراتِ عليه فمنحه دفئا يشتهيه الربيعُ فيودُّ إن يبكرّ بقدومه.. وتقفُ البراعمُ على أهبةِ الاستعدادِ رغبةً منها في أن تزهر..، لكن الجو لا يزال يقسو في برودته.. والأمطار تهطل في أيام متتالية.. كأن السماء لم تأذن بعد.. فلا زالت ثمة غيمة أو غيمتين أو ربما أكثر بقليل..

لا زال ثمة دموعُ.. وثمة جراحٌ مفتوحةٍ.. تلك الجراحُ القديمة التي حاولنا أن ندفنها بغبار الأيام.. غير أنها عادت تتفتق.. والمهدئات لا تكفي والألم يزداد..

النزيف مستمر.. والتعفير لا يوقفه.. لأننا بحاجة لمراهمَ وضماداتٍ قيقية، وخيوطٍ لنخيط جراح أوطاننا التي تمتد طولاً وعرضاً وعمقاً..

في قلبي..

بستانٌ..

Digitized by Google

يشمخُ نخيلَه عالياً..
بينه شجيراتِ آسٍ..
وأغصانِ رازقيٍّ محنية..
في قلبي..
محفلٌ من الزهورِ البيضاءِ.. وأنتِ..
أنتِ يا جوريتي البنفسجية..
أيُّ حزنٍ تحملينَ..؟!
بين بتلاتكِ الندى..
دمعٌ بالشهدِ ممزوجٌ..
وقلبي..
غائرُ الجراحِ..
بستانٌ متشابكُ النخيل..
*****
لكِ عينان.. بلونِ السماءِ الصافيةِ..
وشعرٌ ذهبيٌّ.. كشمسِ تموز..
وبشرةٌ ثلجية..
لكِ قامةُ جبالِ الألبِ..
وروحُ باريسَ..
وجمالُ تماثيلِ الرومانِ الرخاميةِ..
وأنا.. يا وهجَ تموز..
يا صديقتي الخيالية..
بلونِ الأسى عيناي..
وحجابي..
ليلٌ يغطي ليلاً..

Digitized by Google

ونهراً رفيعاً ينسابُ..
من مقلٍ صافية..
أبرقها اكتئابٌ..
ففاضَت الضفافُ..
فوق ابتسامةٍ عطشى..
لقناعٍ شاحبٍ..
يدعو الإلهَ.. وينتظرُ أملاً..
في الغدِ الغائبِ..
يصلُ الضفةَ بالضفةِ..
والشرقَ بالغربِ..
والأمنيةً بالأمنيةِ..
والأرضَ بالسماءِ..
***
انتِ السيفُ.. وانا الدرعُ..
انتِ التحدي.. وانا الكبرياءُ..
انتِ وانا..
بل نحن النساءُ..
صفحاتٌ..
لتاريخٍ يكتبُ..
بحافاتٍ حادةٍ..
وحبرٍ أسودَ ودماءٍ..
انا السحرُ.. وانتِ الجاذبيةُ..
انا الحنانُ.. وانتِ الرقةُ..
انا الصورةُ.. وانتِ الاسطورةُ..

Digitized by Google

انا وانتِ..
بل نحنُ النساءُ..
حقولُ خزامى..
وحدائقُ ياسمين..
وبساتينُ نخيلٍ..
يشمخ عالياً..

2011/2/14

Digitized by Google

نبعة وإخوانها السبعة[1]

(1)

كان يا ما كان.. في أحدِ الأزمان.. حين كانت مدنُ الشرق سبيةً بيد بني عثمان.. كان ثمةَ فتاةٍ رائعةُ الحسنِ اسمها نبعة الريحان.. وكان لها سبعةٌ من الإخوان.. خمسة يصغرونها.. واثنان كبيران.. اسمهما الأدهم و الأيهم..

وفي احد الأيام مات والي المدينة العجوز.. وجاء للمدينة والي تركيٌ جديد.. فأقيمت الاحتفالات والعزائم والولائم ودعي إليها كبار التجار وأصحاب النفوذ والأموال..

وكان ثمة نميمة جديدة تتداولها الألسن عن الأيهم ابن المرحوم حسن الشكرجي.. صاحب معامل الحلويات في المدينة.. فقد قيل انه مضى على رحيله إلى (سفر برلك) أربعة أعوام ولم يعد حتى الآن..

وهناك شائعة رائجة هذه الأيام تتحدث عن موته على حدود الدولة العليه..، ويذكر الجميع أن أخته الفاتنة (نبعة الريحان) قد بلغت العشرين من عمرها.. ولم تزل ترد العرسان عن بابها خائبين فقد نذرت أن لا تتزوج حتى تعرف مصير أخيها البكر..

ولم يمضِ الكثيرُ من الأيامِ حتى عبر الوالي الجديد عن رغبته في التعرف إلى أبناء الشكرجي المرحوم.. فأوجست زوجة الوالي الخيفة.. وتسلل الشك إلى قلبها.. فأرسلت تطلب بدورها.. (نجاة

[1] إلى روح جدتي.. والى روح معلمتي وجدان.. ولكل شهرزاد..

Digitized by Google

الكشافة) وهي امرأة ذات مكر وخديعة.. وسحر وشعوذة.. تدعي أنها عرافة قد كشف عنها الحجاب..، ورغم ان هذه العرافة تسكن في مكان بعيد عن المدينة إلا أنها قدمت مسرعة تلبية لرغبة الخاتون زوجة الوالي الجديد..

*****

لم تلبث نبعةُ الريحان العودةَ إلى الدارِ مع أخوتها بعد ان التقوا الوالي والخاتون حتى أرسلت زوجة الوالي في طلبها كوصيفة لها..

رغبت نبعة برفض الطلب بشكل مباشر.. لولا ان أخيها الأدهم تأخر في رد الجواب راغباً بصياغته بشكل مختلف.. عندئذ افتقدت نبعة وجود الأيهم الذي تحسبه كان سيوافقها الرأي أو على الأقل يمنحها الفرصة لتعبر عن رغبتها..

رد الأدهم كان "إن أبناء المرحوم حسن الشكرجي لن يسمحوا لأختهم بالتوجه نحو قصر الوالي أو البقاء فيه دون رفقة من إخوتها.. " وحين سمع الوالي تلك الإجابة أدرك مقصد الأدهم.. فأرسل يطلب من أبناء الشكرجي من يكون مستشاراً له الى جانب تكراره للطلب السابق..

تأخر الأدهم مرةً أخرى في الرد على الوالي..، ولكن هذه المرة كان السبب هو محاولته اقناع نبعة للذهاب إلى القصر معه.. بعد ان أصبح مستشاراً لدى الوالي..

*****

Digitized by Google

لطمةٌ جاءتها فطرحتها أرضاً.. وما هي بأول لطمةٍ يستقبلها خد اعتاد الحزن والضيم.. وعاش سجيناً في ركن الحريم..

اعتادت نبعة أن تلقى الحيف من زوجة الوالي.. وتابعاتها المخلصات في ركن الحريم.. ولم تتصور يوماً أن اليد التي ستمتد لتصفع كرامتها هي اليد التي كان عليها ان تدافع عنها.. في مثل هذه المواقف..

هل تراه سحر المشعوذة التي سقتها اياه زوجة الوالي في لقائهم الاول هو السبب في تدهور حالها الى هذه الدرجة.. أم انه اثر المال الحرام الذي ملأ معدة اخيها ونهش عقله وانساه نفسه بعد ان أصبح مستشاراً لدى الوالي على حسابها.. على حساب كرامتها.. وعلى حساب صبرها في العمل عامين كوصيفة لدى زوجة الوالي حتى صار اليوم وجيهاً من وجهاء المدينة..

ومع هذا ها هو يأتي اليوم ليفتري عليها ما سكبوه في أسماعه.. دون أن يسأل أو يتأكد أو يستفهم منها.. بل دون ان يخبرها بوضوح عن ما اتهموها به..

- ما الذي جنيته يا أخي..؟

- أوتسأليني..؟! أوليس الأحرى بكِ أن تخبريني أنتِ..؟

- أنا لم افعل شيئاً.. اقسمُ لكَ..

- فعلاً..؟! ألستِ أنتِ من فـ.. (استغفر الله العظيم)..

- لماذا تستغفر الله في وجهي.. وكأني شيطان..

- وما أنت إذا.. ألستِ شيطانةً صغيرةً لوثت شرفنا ودنست سمعتنا بمجونها..؟!

Digitized by Google

- اتقي الله..، أنا لم اخرج من القصر منذ أكثر منذ عامين.. ولا انفك ملازمةً للخاتون فكيف ومتى وأين يتسنى لي الخوض بالمنكر..؟! اتقي الله يا ابن أمي..

- صه..، لستِ ابنة أمي الطاهرة ولا ابنة أبي الشريف.. إني أتبرأ منكِ الى يوم الحساب..

- ولكن..، كيف لكَ ان تحكم عليّ دون أن تخبرني حتى ما الذي سمعته.. او رأيته.. لأفهم على الأقل التهمة التي رموني بها دون وجه حق..؟

- الحق.. الحق أن عليك أن تخرسي إلى الأبد.. وأن تتذكري لو إنني كنت قد رأيت شيئاً أو سمعت بشيءٍ.. لطارت رقبتك بلحظة..، ولكن من حسن حظك وليس الأمر بعجيب على من لا شرف لها أن تكون ذات حظ كبير.. أنني لم أجد عليك أي ممسك يخولني التصرف..

بعد أن سمعت نبعة الريحان من فاه أخيها الأدهم هذه الكلمات لم تعد تعبأ بمواضع الالم في أو آثار الكدمات التي تركتها قبضته على جسدها..

"هانت عليك.. عشرة صار لها عمر.. اعتب عليك.. كان ممكن تنتظر..

وينه كلامك يا محب.. وينه حنانك يا حنون..

مو قلت أضمك بالقلب.. مو قلت أشيلك بالعيون..

تماديت ويايا.. تماديت هوايا.. .

تجرحني وتمشي.. . والدمعة برمشي..

يا عمري كفايا.. لو صدق قلبك عليا.. ما جرحت قلبي بديك.. هانت عليك.. "

Digitized by Google

(2)

مع كل الحرص الذي امتاز به عماد الدين.. كاد أن يضعف.. ومع كل التوصيات التي حمّله إياها الحاج محسن.. كاد أن يتغلب الفضول عليه ليلتفت الى المواضع التي تلقي الأشعار كي تغريه.. وتمنعه من تجاوز البستان المسحور.. حيث تحتجز المشعوذة نجاة بنبعة الريحان..

رغم انه لم يكن ليتأكد من دخوله البستان المسحور لولا تمثال لجنية استقبلته تنشد:

اشوفن الطول طول هندازة
والخد احمر والعين رمازة

وما إن تجاوز البوابة حتى صادفه سياج من أشجار ألآس.. تعلوها الأزهار البيضاء متمايلة" تنشد:

أنا الياس أنا الياس
وأحباب قلبي عليّ قاس
وأتعجبوا يا بشر
وأتفرجوا يا ناس

مشى قليلاً صادفته ثمار النارنج تزهو في الأشجار منشدةً:

أنا الرارنج..
أنا الرارنج يا حيف كشري مر
ويا حيف حجايا الناس تشابه كلام المر

والى جانبها أشجار الليمون.. ترجزُ ثمارها:

أنا النومي.. أنا النومي..
شبهت نفسي سمج

Digitized by Google

مأكولي مذمومي

حين تجاوزها ترأى له من بعيد البرج الذي يعتقد ان المشعوذة تسكنه وتسجن فيه نبعة ايضاً.. أسرع نحوه راكضاً فأعترضته الواح من ورد البنفسج تنادي:

أنا الكحلي أنا الكحلي
البس بدله على بدله
من الشام تصحلي

وعلى اليسار ألواح من الورد تنادي:

أنا ألجوري.. أنا ألجوري
آغات كل الزهر
أغيب عنكم سنة
والفي عليكم شهر
وأترس قماقمكم
من دموع الدهر

زاد من سرعته حتى وصل الى البرج .. دار حوله باحثاً عن باب يطرقها فلم يجد.. لكنه سمع صوتاً أجشاً ينادي "نبعة أمّ الاخوان السبعة.. مديّ ضفيرتكِ لانزل".. ثم رأى ضفيرة طويلةً تمتد من نافذة البرج العليا.. ومخلوقٍ يتمسك بتلك الضفيرة وينزل بها كما لو انها سلّم.. فاقترب عماد الدين من ذلك المخلوق ليتبين انها العجوز المشعوذة التي يقصدها فراح ينشدها:

جبت لحبابتي تفاحة..
وفرصجينه وعاينه بالكتب
لقينه الكتب ناسينه
وحق ابو خيمة الزرقة المغطينه

Digitized by Google

لولا المحبه لا رحنه ولا جينه

فأطلقت المشعوذة ضحكتها الفاجرة واجابته:-

اهلاً وسهلاً بيك.. واهلاًب(هداياك) القلب قبل الروح تمشي وتلقاك

وما كادت ان تنهي ضحكتها حتى سالت الدماء من بطنها التي غرس فيها عماد الدين خنجراً زوّده به الشيخ.. فسقطت العجوز خائرةً ثم تحولت الى دخان اسود تلاشى مع الهواء.. وتحول البستان المسحور بمحتوياته الى حالة أخرى..، بل يمكننا القول ان كل ما كان في البستان مسحوراً عاد الى حالته الأصلية.. فالتمثال وأشجار الحمضيات تحولنَّ الى نساء.. والأزهار عدنَّ فتيات صغيرات..

ولم يبق غير البرج الخالي من الابواب.. ويبدو أن نبعة الريحان كانت محتجزة به.. فأحتار عماد الدين في كيفية وصوله لها.. اذ بدا له استغلال شعرها الطويل كسلم أمرا بالغ السوء والحقارة.. فأغتمّ وراح يغني:-

يا ربي ما لي ذنوب إلا هوى المحبوب ..
لا هو ذنب وأتوب.. واستغفر الرحمن..
يا نبعة الريحان.. حني على الولهان..
جسمي نحل.. والروح ذابت وعظمي بان..
من علتي اللي بحشاي..
ما ظل عندي راي..
دائي صعب ودواي ما يعرفه إنسان..
يوم الذي حبيت.. يا منيتي جنيت..
حاير أنا ظليت.. ما ادري ذنبي أش جان..

Digitized by Google

يا نبعة الريحان..
حني على الولهان..
جسمي نحل..
والروح ذابت وعظمي بان..

(3)

تعرف عماد الدين على الأيهم في الجيش.. وأصيب كلاهما أثناء إحدى المعارك.. وبقيا معاً في مستشفى للعلاج حيث تعرفا على بعضهما أكثر.. وتحولت رفقتهما الى صداقة واتفقا على خطة للهروب من المستشفى.. ونفذاها ونجحا..

في هذه الأثناء طلب عماد الدين من الأيهم ان يشرّفه بالقرب منه.. ويسمح له بطلب يد أخته نبعة الريحان التي طالما سمع منه عنها.. فوافق الأيهم على شرط أن يكون جواب الموافقة النهائي هو ما سيسمعه من نبعة نفسها..

وهكذا عاد عمادُ الدين مع الأيهم الى مدينته ليرى نبعة ويتعرف عليها ويسمع جوابها.. وحين وصلوا إلى الولاية صادفهم انهيار سلطة الدولة العثمانية بعد انتهاء الحرب العالمية الاولى.. وهروب الوالي ومن معه من أتباع ومستشارين وأعوان عملوا معه على نهب الناس وفرض الضرائب القاسية عليهم أو زجّهم بالسجون للاستحواذ على أملاكهم..

كان الأدهم احد مستشاري الوالي.. لذلك فقد هرب مع الوالي.. لمّا وصل الأيهم بصحبة عماد الدين سمع بالمظالم التي ارتكبها أخوه الأدهم بحق نبعة الريحان واخوته الصغار بعد ان زجّ بهم

Digitized by Google

في سرداب القصر وتخلص من نبعة الريحان بتلفيق تهمة هروبها من القصر برفقة عشيق لها من الحرس وهكذا استطاع مصادرة حقّ اخوته جميعاً في ميراث ابيه..

حين عثر الأدهم على اخوته في السرداب كانوا بحالة سيئة.. ولكنه تمكن من انقاذهم.. اما نبعة فظلت اخبارها مجهولة بالنسبة للجميع .. عدا الشيخ محسن وهو بستاني القصر كان يعرف الكثير من الامور والاخبار وضمنها مصير نبعة الريحان وكيفية انقاذها.. وهكذا ساعد عماد الدين في استدلاله الى البستان المسحور فقصده بمفرده.. لان الحزن والاسى غلب على الأيهم وألتهبت جراحه القديمة واضطر لملازمة الفراش..

اما نبعة الريحان فقد احست بغرابة ما..، أذ بعد ان غادرت المشعوذة نجاة برجها مستخدمة الضفيرة كسلم للنزول.. حدثت ضجة ذات وقع كبير في الاسفل.. وعلت أصواتٌ في البستان المسحور كما لو ان الحياة دبت في انحائه!

حاولت نبعة الريحان أن تستكشف الأمر.. فنزلت عبر فتحة المدخنة وأخرجت رأسها من حفرة خلفية في قاع البرج.. وشدّ انتباهها صوت رجلٍ يتغنى بأسمها .. فخرجت بهدوء.. واقتربت من مصدر الصوت.. وفوجئت بالحفاوة التي استقبلها بها عماد الدين والنساء والفتيات اللواتي حررهن من سحر المشعوذة..

Digitized by Google

الهوامش

- (صدفة وكأن مع..)، من اغنية اوراق الحب للمطرب رامي خليل
- (وانا اللي كنت فاكرة..)، من اغنية جاني بعد يومين للمطربة سميرة سعيد
- (متخيل اني راح اتحمل..)، من اغنية انا ناطر للمطرب نبيل شعيل
- (سلام عليك..)، من قصيدة للشاعر عبد الرزاق عبد الواحد
- (اعدل الناس..)، من قصيدة للشاعر الكبير ابو الطيب المتنبي
- (مرسيه كلك ذوق..)، من أغنية مرسيه للمطرب كاظم الساهر
- (شاءت الاقدار..)، من قصيدة للشاعر نزار قباني
- (انا الجوري..)، شعر من قصة عراقية فلكلورية
- (لا احد يعرف..)، من قصيدة للشاعرة سعاد الصباح
- (مين اللي غير..)، أغنية فيلم أنت عمري
- (امير قلبي الجميل..)، أغنية من الفلم الكارتوني الحورية الصغيرة
- (ابهضم فركاك مصيوبة..)، من قصيدة رثائية حسينية
- (لمني بشوق واحضني..)، من اغنية لمني بشوق للمطرب عبد الله رويشد
- (Quitter ma vie..)، من اغنية si tu m'aimes للمطربة Lara Fabian
- (وحدن بيبقو..)، اغنية للمطربة فيروز
- (Just a little more..)، من اغنية Take My Heart Jenifer Love HewittJBack
- (كتبتلك جوّات..)، من اغنية طلوع الروح للمطرب ثائر العلي
- (I ve been waiting..)، من اغنية We will never parte من Please don't go away
- (انثري شعرك حولي..)، من اغنية مستقيل للمطرب كاظم الساهر
- (احبك جدا.. وجدا..)، من اغنية الحب المستحيل للمطرب كاظم الساهر
- (حبيبي شايفك وانت بعيد..)، من اغنية في يوم في شهر للمطرب عبد الحليم حافظ
- (مثل النهر ما تغيرنا..)، من اغنية صغيرون للمطربة سيتا هاكوبيان

Digitized by Google

- (عندما يذهب الشهداء الى النوم..)، من قصيدة للشاعر محمود درويش
- (يا زمن قاسي عليا..)، من اغنية ما يهم للمطرب عبد الله رويشد
- (هانت عليك..)، من اغنية هانت عليك للمطرب كاظم الساهر
- (يا ربي ما لي ذنوب..)، من اغنية نبعة الريحان للمطربة سليمة مراد.

Digitized by Google

لا تحلم صبا نعمة
إلا من أجل أن تستلهم من الأسطورة
ما يجعل من قصصها مزيجا من
حاضر غائب، ومن غائب حاضر.
في هذه القصص الثلاث ترسم
صبا نعمة ملامح عالم اسطوري
تتداخل فيه
الأزمنة، وذلك مثلما تتداخل اللغة.
ولا يفوتها ان تضيف
حكاية أخرى الى الألف ليلة وليلة.
إنها هنا، تكتب الليلة
الثانية والثالثة والرابعة، بعد تلك.
وشهرزاد تطرب نفسها
أيضا، بأغاني الحاضر وقصائده،
إنما لكي تغني آلامها الخاصة.
وهي ترحل الى حلم
بعيد من أجل أن تعلن انفصالا ضمنيا
عن واقع يستحيل العيش فيه.

الناشر

آلاف الكتب، لكل وقت، ومن أي مكان
e-kutub.com
Digitized by Google